المجنون

كلاسيكيات

جبران خليل جبران

تقديم : د. صلاح فضل | تحقيق وتعليق: د. عبد المرضي زكريا خالد

الدار المصرية اللبنانية

المجنون

كيف صرت مجنونًا

هذه قصتي إلى كل من يودّ أن يعرف كيف صرت مجنونًا: في قديم الأيام قبل ميلاد كثيرين من الآلهة نَهضتُ من نوم عميق فوجدت أن جميع براقعي قد سُرقت - البراقع السبعة التي حكتُها وتقنعت بها في حيواتي السبع (*) على الأرض - فركَضْتُ (1) سافر (2) الوجه في الشوارع المزدحمة صارخًا بالناس: «اللّصوص! اللّصوص! اللّصوص الملاعين!» فضحك الرجال والنساء مني وهرب بعضُهم إلى بيوتهم خائفين مذعورين .

وعندما بلغت ساحة المدينة إذا بفتًى قد انْتَصَبَ (3) على أحد السطوح وصرخ قائلا: «إن هذا الرجل مجنون أيها الناس!» وما رفعت نظري لأراه حتى قبَّلت الشمسُ وجهي العاري لأول مرة. لأول مرة قَبَّلَت الشمسُ وجهي العاري فالتهبت نفسي بمحبّة الشمس ولم أعُدْ بحاجةٍ إلى براقعي. وكأنما أنا في غيبوبة صرخت قائلاً: «مباركون مباركون أولئك اللصوص الذين

سرقوا براقعي !»

هكذا صرتُ مجنونًا، ولكنني قد وجدت بجنوني هذا، الحريةَ والنجاةَ معًا: حريةَ الانفراد والنجاة، من أن يدرك الناس كياني، لأن الذين يدركون كياننا إنما يستعبدون بعض ما فينا .

ولكن لا أفخرنّ كثيرًا بنجاتي، فإن اللّص وإن كان في غَيَّابةِ السجن (4) فهو في مَأْمَنٍ (5) من أقرانه اللّصوص !

الله

عندما ارتعشتْ شفتاي (6) بالنطق لأول مرة، صعدتُ إلى الجبل المقدس وناديت الله قائلًا: «إني عبدك يا ربّي، مشيئَتُكَ الخفيةُ شريعتي، وسأظل خاضعًا لك سحابة الحياة ».

فلم يجبني الله بل مرّ كعاصفة هوجاء واختفى عن ناظري .

وبعد ألف سنة صعدت ثانية إلى الجبل المقدس وخاطبت الله قائلًا: «أنا جِبِلُّة (7) يديك يا خالقي، من تراب الأرض صنعتني، وبنفخة من روحك العلويّة أحييتني. فأنا مدين لك بكلّيتي ».

فلم يجبني الرّب الله، وكألف من الأجنحة الخاطفة اجتاز بي عابرًا. وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدس أيضًا، وناجيتُ الله ثالثة قائلًا : «يا أبتاه القدوس، أنا ابنك الحبيب، بالرأفة والرحمة ولدتني وبالمحبة والعبادة سأرِثُ ملكوتك ».

فلم يجبني الله في هذه المرة أيضًا، وكالضباب الذي يغشى (8) قصيّ التلال توارى (9) عن عيني .

وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدس وخاطبت الله رابعة قائلا: «يا إلهي الحكيم العليم، يا كمالي ومحجّتي، أنا أَمسك وأنت غدي، وأنا عروقٌ لك في ظلمات الأرضُ وأنت أزاهر في أنوار السماوات ونحن ننمو معًا أمام وجه الشمس ».

فعطف الله إذا ذاك عليّ، وانحنى فوقي، وهمس في أذني كلمات تذوب رقّة وحلاوة، وكما يطوي (10) البحر جدولًا منحدرًا طواني الله في أعماقه .

وعندما انحدرت (11) إلى الأودية والسهول كان الله هنالك أيضًا .

يا صاحبي

يا صاحبي: إنني لستُ على ما يبدو لك منّي، فما مظاهري سوى رداءٍ دقيق الصنع، مَحُوكٍ من خيوط التساهل والحُسْنى، ألتفّ به ليدرأ (12) عني تطفلك (13) ويقيك من إهمالي وتغافلي. وأما ذاتي الخفية الكبرى التي أدعوها أنا، فَسِرٌّ غامض مكنون في أعماق سكون نفسي ولا يدركه أحدٌ سواي، وهنالك سيبقى أبدًا

غامضا مستترًا .

يا صاحبي: إنني أودّ أن لا تصدق ما أقول وأن لا تثق بما أفعل، لأن أقوالي ليست سوى صدى لأفكارك، وأفعالي ليست سوى أشباحٍ (14) آمالك .

يا صاحبي: عندما تقول لي: «الريح تهبّ شرقًا» أجيبك على الفور قائلا: «نعم إنها تهبّ شرقًا» لأنني لا أريد أن يخطر لك أن أفكاري السابحة مع أمواج البحر لا تستطيعُ أن تُحلّق طائرة على متون (15) الرياح. أما أنت فقد مزّقتْ الأرياحُ نسيجَ أفكارك القديمة البالية فبتَّ قاصرًا عن إدراك أفكاري العميقة المرفوفة فوق البحار. وحَسُن أنك لم تدرك كنهها لأنني أريدُ أن أمشي على البحر وحدي .

يا صاحبي عندما تبزغُ شمسُ نهارك تدنو ظلمة ليلي، ومع ذلك فإني أحدّثك من وراء ستائر ظلمتي عن أشعة الشمس الذهبية التي ترقص عند الظهيرة على قنن الجبال وعمّا تحدثه في رقصها من الظلال الظليلة المنسابة إلى الأودية والحقول، أحدثك عن كل ذلك لأنك لا تستطيع أن تسمع أناشيد ظلمتي ولا أن ترى خفقان جناحيّ بين الكواكب والنجوم. وما أحلى أنك لا تسمع ولا ترى ذلك لأني أوثر أن أسامر الليل وحدي .

يا صاحبي: عندما تصعدُ إلى سَمَائك أهبطُ إلى جحيمي. ومع أنه تَفْصِلني عنك هوّة لا يُستطاع عبورها تظل تناديني قائلا: «يا رفيقي، يا صاحبي»، فأجيبك: «يا رفيقي، يا صاحبي» لأنني لا أريد أن ترى جحيمي، فإن لهيبه يحرق باصرتيك ودخانه يسدّ منخريك (16). أما أنا فإنني أضن (17) بجحيمي أن يزوره كل من على شاكلتك، لأنني أفضّل أن أكون في جحيمي وحدي .

يا صاحبي: أنتَ تقولُ إنك تعشق الحق والفضيلة والجمال، وأنا أقول مقتديًا بك إنه يليق بالإنسان أن يعشق مثل هذه المناقب (18) ، غير أنني أضحكُ من محبتك في قلبي ساترًا ضحكي عنك، لأنني أريد أن أضحك وحدي .

يا صاحبي: إنك رجلٌ فاضلٌ متيقِّظ حكيم، بل إنك رجل كامل. ولذلك فإني ضَنًّا بكرامتك أخاطبك بحكمة وتيقّظ، ولكنني مجنون منجذب عن العالم الذي تقطنه (19) أنت إلى عالم غريب بعيد، وإنني أستر عنك جنوني لأنني أود أن أكون

مجنونًا وحدي .

أنت لست بصاحبي، يا صاح! يا صاح (20)! ولكن كيف السبيل لإقناعك فتفقه وتفهم؟

إن طريقي غير طريقك ولكننا نمشي معا جنبًا إلى جنب (21).

اللّعِين

قلتُ مرة للَّعِين (22): «ألم تسأم نفسك الإقامة في هذا الحقل وحيدًا منفردًا؟ ».

فأجابني قائلا: «إن لي في التخويفِ لذَّة لا يُسْبِرُ غَوْرَها (23) ، ولذا فإني راض عن عملي ولا أملّه ».

ففكرت هُنيهةً ثم قلت له: «بالصواب أجبت، فإنه قد سبق لي فَخَبَرْتُ هذه اللذةَ بنفسي ».

فأجابني قائلا: «إنك واهم يا هذا، فإن هذه اللّذة لا يعرف طعمها إلا من كان مَحْشُوًّا بالقشِّ مِثْلي ».

فتركته إذ ذاك وانصرفت وأنا لا أدري هل مدحني أم تنقَّصَني (24).

وانقضى عام صار اللعين في أثنائه فيلسوفًا علاّمة. وعندما مررت به ثانية رأيت غُرابين يبنيان عشًا تحت قبّعته .

بين هَجْعَةٍ ويقظة

كان في المدينة حيثما وُلدتُ امرأة وابنة، وكانت لهما عادة أن تمشيا وهما نائمتان. فحدث في إحدى ليالي الصيف الهادئة الجميلة أن نهضَتْ الأم وابنتها من نومهما على جاري عادتهما ومشتا - وهما نائمتان - في حديقتهما

المبرقعة بالضباب .

وفيما هما ماشيتان قالت الأم لابنتها: «تبًا لكِ من عدو شرير! أنتِ التي هدمتِ شبابي وبنت حياتها على أنقاض حياتي! آه لو أستطيع أن أقتلك !».

فأجابت الابنة وقالت: «أيتها المرأة الممقوتة (25) والحيزبون (26) الأنانية الرثة (27) القائمة بيني وبين ذاتي الطليقة (28) ، يا من تودّ أن تكون حياتي صدًى لحياتها الرثة البالية! ألا ليتَكِ تهلكين !»:

وفي تلك اللحظة صاح الديك فأفاقتا معًا من نومهما وهما بعد في الحديقة ماشيتان .

فقالت الأم بلطف: «أذاك أنتِ يا حمامتي؟» فأجابت الابنة بحلاوة: «نعم أنا ابنتك يا حَنونتي (29)!».

الناسِكان

عاش ناسكان في قُنَّةِ (30) جبل عال وكانا دائبين (31) في عبادة الله وحبهما الواحد للآخر .

وكان لهذين الناسكين قصعة (32) من الخزف لم يكن لهما

غيرها مقتنى .

ففي أحد الأيام وسوس الخناس (33) في قلب الناسك الكَهْل فجاء إلى رفيقه الشاب وقال له: «لقد مضى على حياتنا معًا زمن طويل وقد آن لنا أن نفترق، ولذا فإني أريد أن نقسم مقتنياتنا (34)».

فاكتأب (35) الناسك الشاب وأجابه قائلا: «إن انفصالك عنّي يجرح قلبي وحقك يا أخي. ولكن إن كان ثمة من ضرورة لذهابك فلتكن مشيئتك ».

ثم تناول القصعة الخزفية بيده وقال له: «إن هذه القصعة هي كلّ ما نقتني (36) أيها الأخ العزيز، ولما كانت قسمتها بيننا مستحيلة فأرى أن تكون لك وحدك ».

فأجابه الناسك الكهل وهو يتميز (37) غيظًا قائلا: «إنني لا أطلب منك صدقة ولا أقبل متاعًا ليس لي، ولذا يجب أن تقسم القصعة فينال كل منا نصيبه منها ».

فقال له الشاب برقة: «إذا قسمنا القصعة فأية منفعة تُرْجَى من قسمتها سواء لك أم لي؟ دعنا، إنْ حَسُنَ لديك نقترع عليها ».

فأجابه الكهل وقال: «إنني لا أريد سوى حصتي كما تقضي العدالة بيننا. ولن أرضى البتّة (38) عن القرعة العمياء التي تحطّ من قدر العدالة وتجعلني مقامرا أعرّض العدالة وحصّتي لصدفة عمياء. ولذا أطلب قسمة القصعة ».

فلم يبق إذ ذاك مجال للشاب أن يبحث معه في الموضوع، فقال له: «إذا كانت هذه حقيقة رغبتك أيها الأخ الحبيب ووددت أن يكون الأمر على ما وصفت فلتُقسَم القصعة ».

فاسودّ وجه الناسك الكهل وصرخ به قائلا: «تبًّا لك (39) ، ما أجبنك وما أقعدك عن الخصام أيها الخَامِلُ (40) البليد !».

الكلب الحكيم

مرّ كلب حكيم ذات يوم بجماعة من السنانير، ولما دنا (41) منهم رآهم مُنصرفين عنه ولم يعبؤوا (42) بقدومه. فوقف يتأمّلهم

مُستغربًا أمرهم .

وفيما هو يتطلّع إليهم نهض من بين الجماعة سنّور بادن (43) تبدو على وجهه أمائر (44) الهيبة والوقار، فنظر إلى رفقائه وقال لهم: «صلّوا أيها الأخوة المؤمنون، فإنّي الحقّ أقول لكم أنّكم إذا صلّيتم وكرّرتم صلاتكم بحرارة يّستجاب تضرّعكم (45) وتُمطركم السماء فئرانا في الحال ».

فلما سمع الكلب الحكيم تلك العظة البالغة ضحك منهم في قلبه وارتدّ عنهم وهو يردّد لنفسه قوله: «ما أغبى هؤلاء السنانير (46) وما أعمى بصائرهم عن إدراك ما في الكتب! أليس مكتوبا، بل ألم أقرأ أنا، وأجدادي من قبل أخبروني أنّ ما تمطره السماء إجابة للصلوات والتضرعات والابتهالات ليس فئرانا بل عظام؟ ».

اطلبوا تجدوا

كان في قديم الزمان إنسان وكان له ملء واد من الإبر .

ففي أحد الأيام جاءت إليه أمّ يسوع وقالت له: «يا صاحب، إن رداء ابني مشقوق وأريد أن أرتقه (47) قبل أن يذهب إلى الهيكل (48) ، أفلا تقرضني إبرة؟ ».

فلم يعطها إبرة، غير أنه أعطاها عظة بالغة كانت عنده، موضوعها «اطلبوا تجدوا»، لكي تأخذها إلى ابنها قبل أن يذهب إلى الهيكل .

الذوات السبع

في سُكُون الليل العميق وقد بدأ النُّعاس يغالبني جَلَسَتْ ذواتي السبع يتحادثن .

فقالت الذات الأولى: «لقد مرّت الأيام والأعوام على وجودي في هذا المجنون وليس لي ما أفعله سوى تجديد آلامه نهارًا وأحزانه ليلًا. وقد كرهت نفسي القيام بهذه الوظيفة المملّة، فلأثورنّ عليه ».

فأجابتها الذات الثانية قائلة: «إنك أوفرُ مِنّي حظًّا يا أختاه، فقد قُدّر لي أن أكون شريكة لهذا المجنون في أفراحه وملذّاته، فأضحك لضحكه وأترنّم (49) في ساعات سروره، وبأقدام مثلثة الأجنحة أرقص لأفكاره البرّاقة، فإن تكن ثورة، فمن أحقّ

بها مني؟ ».

فقالت الذات الثالثة: «أوّاه (50) أيتها الرفيقتان! إن عملي أدعى إلى الثورة من عمليكما فأنا الذات المريضة حبًّا، الملتهبة شوقًا، الهائمة حنينًا! إلّا أنّ الثورة على هذا المجنون من شأني أنا ذات الشقاء والأسى ».

فقالت الرابعة: «إنني أكثر منكن شقاء أيتها الرفيقات، فقد قُدِّر لي أن أثير كوامن البغض وأوقظ نيران الكره والحقد في قلب هذا المجنون، فأنا، الذات الثائرة الهوجاء (51) المولودة في كهوف الجحيم السوداء، أحقُّ منكنّ بالثورة على مهمّتي ».

وقالت الذات الخامسة: «إنني أغبِطُكنَّ جميعًا أيتها الأخوات بما قُدِّر لكنّ من العمل السعيد، فقد آثر الدهر أن أجدد أحلام هذا المجنون التي لا تنتهي، وأهيّج جوعه وعطشه اللذين لا يسكنان، هائمة به على وجهي (52) في فضاء اللانهاية من غير أن أتذوّق طعم الراحة، ناشدة (53) ما لم يُعرف قط وما لم يُخلق بعد، فأنا أَوْلى منكنّ بالثورة والعصيان ».

فقالت الذات السادسة: «ما أسعدكنّ أيتها الأخوات وما أتعسني وأشقاني! فأنا الذات المشتغلة العاملة الحقيرة التي بِيديها الدائبتين وعينها الساهرتين ترسم من أيامها صُورًا وتمنح العناصر الدنيئة (54) العديمة الشكل أشكالًا جميلة خالدة - ألا إنه أجدر بي أنا الذات المعتزلة الهادئة أن أَنْقِم (55) وأثور ».

فتطلعت الذات السابعة في كلّ منهن قائلة: «أفٍ (56) منكن جميعًا! ما أغرب ثورتكن على هذا الرجل المسكين بحجة أن لكل منكن عملًا محدودًا. حبّذا لو أسعدتني الأيام بعمل محدود كَأعمَالِكُنَّ. فأنا ذات بِطَالة لا عمل لها فأجلس أبدًا بين اللانهايتين - الصمت والظلام - في حين أنّ كل واحدة منكنّ دائبة (57) في تجديد الحياة على تنوع مظاهرها. بربّكن قُلْنَ لي أيتها الشقيقات مَنْ مِنّا أحقّ بالثورة، أنتن أم أنا؟ ».

ولما فرغت الذات السابعة من كلامها نظرت إليها الذوات الست بشفقة وحنان ولم يحرن جوابا (58). وجنّ الليل (59) فرقدن وفي طيّات صُدُورِهن استسلام جديد وخضوع سعيد، كلّ لما قسم لها من الواجب المحدود! أما الذات السابعة فظلّت شاخصة (60) تراقب اللّاشيء الذي وراء كل شيء .

العدالة

وكان عرس في قصر الأمير في إحدى الليالي، وكان المدعوّون يدخلون ويخرجون. فدخل رجل مع الداخلين وحيّا الأمير باحترام ووقار. فنظر إليه الجميع بدهشة، لأن إحدى عينيه كانت مفقوءة والدم ينزف من نقرتها (61) الفارغة .

فسأله الأمير قائلا: «ما دهاك (62) يا صاح؟» فأجابه الرجل قائلا: «أنا لصّ أيها الأمير، وقد اغتنمت (63) فرصة في ظلمة هذه الليلة على جاري عادتي وذهبت لأسرق أموال أحد الصيارفة. وفيما أنا أتسلق الجدار لأدخل دكان الصيرفي ضللت سبيلي ودخلت من نافذة جاره الحائك. فعدوتُ (64) طالبا الهرب وأنا لا أبصر شيئا لشدة الظلام، فلطم نول الحائك عيني وفقأها. ولذلك أتيتك الآن ملتمسًا أن تنصفني من الحائك ».

فأرسل الأمير واستدعى الحائك. فأحضر الحائك في الحال، فأمر الأمير أن تُقلَع عينه .

فقال له الحائك: «بالصواب حكمت أيها الأمير، فإن العدالة تقضي بقلع عيني، ولكنه غير خَافٍ على سُمُوّك أنني أحتاج في حرفتي إلى عينين لكي أرى حاشيتيّ الشقة التي أنسجها. غير أنّ لي جارا إسكافا (65) له عينان مثلي ولكنه لا يحتاج في مهنته إلا إلى عين واحدة. فاستدعه إن أردت واقلع إحدى عينيه للمحافظة

على الشريعة ».

فأرسل الأمير في الحال واستدعى الإسكاف، فحضر واقتُلِعَتْ عينه. وهكذا تأيدت العدالة ».

الثعلب

خرج الثعلب من مأواه (66) عند شروق الشمس، فتطلع إلى ظلِّه منذهلًا وقال: «سأتغذى اليوم جملًا». ثم مضى في سبيله يفتّش عن الجمال الصباح كلّه. وعند الظهيرة تفرّس (67) في ظلّه ثانية وقال مُندهشا: «بل، إن فأرة واحدة تكفيني ».

الملك الحكيم (*)

كان في إحدى المدن النائية (68) ملك جبّار حكيم، وكان مخوفًا لجبروته محبوبًا لحكمته. وكان في وسط تلك المدينة بئر ماء عذب، يشرب منها جميع سكان المدينة من الملك وأعوانه فما دون لأنه لم يكن في المدينة بئر سواها. وفيما الناس نيام في إحدى الليالي جاءت ساحرة إلى المدينة خِلْسة (69) وألقت في البئر سبع نقاط من سائل غريب وقالت: «كل من يشرب من هذا الماء فيما بعد يصير مجنونًا ».

وفي الصباح التالي شرب كل سكان المدينة من ماء البئر وجنّوا على نحو ما قالت الساحرة. ولكن الملك والوزير لم يشربا من ذلك الماء. وعندما بلغ الخبر آذان المدينة طاف سكانها من حي إلى حي ومن زُقاق إلى زقاق وهم يتسارّون (70) قائلين: «قد جُنَّ ملكنا ووزيره. إن ملكنا ووزيره قد أضاعا رشدهما. إننا نأبى (71) أن يملك علينا ملك مجنون. هيا بنا نخلعه عن عرشه !».

وفي ذلك المساء سمع الملك بما جرى فأمر على الفور بأن يملأ حُقّ ذهبي (كان قد ورثه عن أجداده) من مياه البئر. فملؤوه في الحال وأحضروه إليه. فأخذه الملك بيده وأداره إلى فمه. وبعد أن ارتوى من مائه دفعه إلى وزيره فأتى الوزير

على ثمالته .

فعرف سكان المدينة بذلك وفرحوا فرحًا عظيمًا جدًّا لأن ملكهم ووزيره ثابا (72) إلى رشدهما .

الطموح (*)

جلس ثلاثة رجال إلى خُوانٍ في حَانةٍ. وكان الأول حائكًا والثاني نجارًا والثالث حفّار قبور .

فقال الحائك لرفيقيه: «قد بِعْتُ اليوم كَفَنًا بديعًا من الكتّان بدينارين. فلنشرب ما طاب لنا من الخمر .

فأجابه النجار وقال: «أما أنا فقد بعت أثمن نعش عندي. فلنأكل أفخر اللحوم مع الخمر ».

فقال لهما حفار القبور: «إنني لم أحفر اليوم سوى قبر واحد، أيها الصديقان، ولكن الذي استأجرني دفع لي الأجر مضاعفًا، فلنستحل (73) بقليل من العسل ».

فحفلت الخمارة بهم في تلك الليلة لأنهم طلبوا الخمر واللحم والعسل مرارًا وكانوا يرقصون طربًا .

أما صاحب الحانة فكان يتلفّت بين آونة وأخرى إلى زوجته مبتسمًا وهو يكاد لا يصدق ما يرى بعينيه. لأن ضيوفه الثلاثة كانوا ينفقون المال من غير حساب .

وظل الأصحاب في الحانة إلي ساعة متأخرة من الليل يأكلون ويشربون. وبعد أن امتلؤوا من كل شيء انصرفوا وهم
يغنون ويضجون (74).

وكان صاحب الحانة وزوجته واقفين بباب حانتهما يشيّعان ضيوفهما بأنظارهما .

فقالت المرأة: حبّذا لو يسعدنا الحظ في كل يوم بمثل هؤلاء الزبائن الكرماء الشرفاء، فإننا نتمكن وقتئذ من إعفاء ابننا الوحيد من خدمة هذه الحانة القذرة، ونستطيع تعليمه ليصير في
المستقبل قسيسا .

اللّذة الجديدة

اخترعت في ليلتي الماضية لذة جديدة .

وبينما كنت أتمتع بها لأول مرة رأيت ملاكًا وشيطانًا قد وقفا ببابي يتخاصمان ويتناقشان على تعريف لذّتي .

فكان الأول يصرخ بأعلى صوته قائلًا: «إنهاخطيئة مميتة »(75).

فيعترضه الثاني قائلاً بصوت أشدّ من صوته: «لا، لعمري

إنها فضيلة ».

اللّغة الأخرى

حدث أنه بعد ميلادي بثلاثة أيام كنت مُتّكئا في مهدي الحريري أتفرّس بلهفة غريبة في العالم الجديد حواليّ .

فقالت أمي للمُرْضِع: «كيف حال ولدي اليوم؟» فأجابتها قائلة: «هو بخير يا سيدتي، فقد أطعمته ثلاثة (76) مرات، ولم أر قط قبله طفلًا بشوشًا مثله ».

فما سمعت ذلك حتى ثار ثائر غضبي (77) وصرخت قائلا: «لا تصدقي، لا تصدقي ذلك يا أماه، فإن فراشي خشن الملمس، والحليب الذي رضعته مُرّ المذاق، ورائحة الثدي كريهة في أنفي، فيا أشدّ ما بي من تعاسة !».

فلم تفهم أمي لغتي، وكذلك المرضع لم تفقه (78) لما قلته لأنني خاطبتهما بلغة العالَم الذي أتيت منه .

وفي اليوم الحادي والعشرين لولادتي، وهو اليوم الذي تعمّدت فيه (79) ، قال الكاهن لأمي: إنني أهنئك يا سيدتي لأن ابنك ولد مسيحيًّا .

فقلت للكاهن مندهشًا: «إذا كان الأمر كما تقول فأحرى (80) بأمك التي في السماء أن تكون تعيسة بك لأنك لم تولد بعد مسيحيًّا ».

فلم يفهم الكاهن ما قلته له بِلُغَتي .

وبعد سبعة أقمار جاءنا عرّاف فتفرّس (81) في وجهي مليًّا (82) وقال لأمي: «إن ابنك هذا سيكون زعيمًا داهية وسيتبعه الناس طائعين ».

فصرختُ بأعلى صوتي قائلا: «تلك نبوءة كاذبة، فأنا أدرى بنفسي وأعلم يقينا أنني سأدرس الموسيقى والغناء ولن أكون إلا موسيقيًّا ».

ولشدّ ما دهشت إذ لم يفهم أحد لغتي مع أنني كنت قد بلغت ذلك الحدّ من عمري .

ولقد مرّ على ذلك ثلاث وثلاثون سنة قد ماتت أمي والمرضع والكاهن (ظلّل الله أرواحهم برحمته). أما العرّاف فلا يزال حيّا يُرزق .

وقد رأيته في الأمس أمام الهيكل فحدّثته وحدّثني وأطلعته على انخراطي في سلك أبناء الموسيقى فقال لي: «قد طالما وثقت بأنك ستكون موسيقيًّا كبيرا، ولقد سبقت في أيّام طفولتك فأنبأت أمك بمستقبلك هذا ».

فصدّقت قوله لأني أنا نفسي نسيت لغة العالم الذي أتيت منه .

عشت مرّة في قلب الرّمانة، وبينما أنا جالس يوما في خليتي سمعت حبّة تقول: «سأصير في المستقبل شجرة متعالية تترنم الأرياح بأغصانها وترقص الشمس على أوراقها، وسأكون قوية جميلة على ممرّ الفصول ».

فأجابت حبة ثانية وقالت: «ما أجهلك أيتها الرفيقة! فإني حين كنت صغيرة مثلك حَلَمْتُ أحلامك. ولكنّني بعد أن صرت قادرة على تحديد كل شيء بمقياس ومعيار أدركت أن جميع آمالي كانت باطلة ».

ثم قالت حبة ثالثة: «أما أنا فإنني لا أرى فينا ما ينبئ بمثل هذا المستقبل العظيم ».

فأجابت حبة رابعة وقالت: «إذا لم ترم حياتنا إلى مستقبل أنبل وأبهى فباطلة هي ».

فوقفت إذ ذاك حبة خامسة وقالت: «ما بالنا نتجادل فيما سيؤول إليه أمرنا في المستقبل في حين أننا لا نعرف ما نحن عليه اليوم؟ ».

فقالت حبة سادسة: «إننا سنظل أبدًا على ما نحن عليه الآن ».

فأجابتها حبة سابعة قائلة: «إن في ذهني صورة واضحة للمستقبل ولكنني لا أستطيع أن أرسمها بالألفاظ ».

ثم تكلمت حبة ثامنة وتاسعة وعاشرة وحبوب كثيرة حتى تكلم الجميع فلم أفهم شيئًا لوفرة الأصوات وبلبلتها (83).

فتركت الرمانة في ذلك اليوم وأتيت فسكنت في سفرجلة (84) حيث لا يوجد إلا قليل من الحبوب تعيش بصمت وسكون .

القَفَصَان

كان في حديقة أبي قَفَصَان .

وكان في أحدهما أسد أحضره عبيد أبي من براري نِينَوَى (85) ، وفي الثاني زُرْزُور (86) غرّيد لا يملّ الإنشاد .

وكان الزُّرزُور يأتي في كل فجر إلى الأسد فيحيّيه قائلًا له: «عم صباحًا يا أخي السجين !».

النملات الثلاث

اجتمع ثلاث نملات على أنف رجل كان نائمًا في الشمس، فحيّت كلّ منهن الأخرى بتحيّة قبيلتها. ثم وقفن هنالك يتحدّثن .

فقالت النملة الأولى: «إن هذه التلال والسهول التي نحن عليها اليوم هي أقفر (87) جهة وطنتها (88) في حياتي على الأرض، فقد طفت النهار بطوله أفتش (89) عن حبة من أي نوع كان فلم أظفر بشيء ».

فأجابت النملة الثانية وقالت: «قد طالما سمعت أبناء قبيلتي يتحدّثون عن مكان يطلقون عليه اسم الأرض الملساء الجرداء وما أكثر ما لهم في دورانها وحركتها من الآراء! وإنّه ليلوحُ (90) لي أننا نسير اليوم عليها لأنّني جُلْت (91) في جميع مُنعرجاتها (92) ومنعطفاتها (93) وخبرت (94) بنفسي حقيقتها ».

فرفعت النملة الثالثة رأسهَا وقالت: «أيتها الصديقتان، نحن الآن واقفات على أنف النملة العظمى - النملة الجبارة اللامتناهية، التي تعاظم جسمها حتى عجزت عن رؤيته عيوننا، واتسع ظلّها حتى قَصرت (95) عن استقصائه مقاييسنا، وارتفع صوتها حتّى كلّت عن سماعه آذاننا. هذه هي النملة الأزلية المالئة الأرجاء بلا نهايتها .

وعندما فرغت النملة الثالثة من كلامها نظرت كلّ من رفيقتيها إلى الأخرى وضحكتا من حديثها .

وفي تلك اللحظة تحرك الرجل في رقدته فرفع يده وحك أنفه فانسحقت (96) النملات الثلاث تحت أصابعه ».

حفار القبور

بينما كنت يومًا أدفن ذاتًا (97) من ذواتي الميتة إذ وقف بي حفار القبور، وقال لي: «أنت هو الرجل الفرد الذي وقع بقلبي دون جميع الذين يأتون إلى هذه المقبرة ».

فقلت له: «لقد سرّني قولك يا صاح، ولكن لماذا وقعتُ بقلبك دون سواي من الناس؟ ».

فأجابني قائلا: «إنّ سواك يأتي باكيًا ويعود باكيًا، أما أنت فإنك تجيء ضاحكًا وترجع ضاحكًا ».

على درجات الهيكل

رأيت في مساء الأمس امرأة جالسة على درجات الهيكل (98).

وكان جالسًا معها رجلان. واحدٌ عن يمينها والآخر عن يسارها ينظران إليها .

وقد لاحظت متعجِّبًا أن وجنتها اليمنى كانت شَاحِبة وأنّ وجنتها اليسرى كانت مورّدة .

المدينة المباركة

خُبِّرت في حداثتي عن مدينة كان جميع الناس يعيشون فيها وفق تعاليم الكتاب (99) ، فقلت لنفسي: «لِأَسْعَ إلى تلك المدينة سعيًا فأحظى (100) بما فيها من البركة العليا ».

وكانت المدينة بعيدة فأعددت للسفر كامل العدّة. وبعد مسير أربعين يوما أَشْرَفْتُ (101) عليها. وفي اليوم التالي دخلت إليها فإذا كل سكانها أعور أقطع. فأخذتني الحَيْرة وقلت في نفسي: «وهل على كل من يعيش في هذه المدينة المقدسة أن يكون

أعور أقطع !».

ثم لاحظت أن القوم كانوا ينظرون إليّ بدهشة أعظم من دهشتي. لأنهم أيضا كانوا متعجّبين من عينيّ ويديّ .

وفيما هم يتحدثون سألتهم قائلا: «هل هذه هي المدينة المقدسة حيث يعيش كلّ إنسان وفق تعاليم الكتاب؟ ».

فقالوا: «نعم هذه هي المدينة ».

فقلت لهم: «وماذا حلّ بكم؟ أين عيونكم اليمنى وأيديكم اليمنى؟ ».

فرثى الشعب لحالتي وأشفقوا على جهالتي وقالوا: «تعال وانظر». ثم قادني واحد من متقدّميهم إلى داخل الهيكل القائم في وسط المدينة .

وعندما دخلت الهيكل رأيت في الصّدر (102) رابية من العيون والأيدي الذابلة، فقلت لهم، والدهش آخذ منّي كل مأخذ (103): «بربّكم قولوا لي أيُّ غاز سفّاح أغار عليكم فحكم بقطع أيديكم وقلع عيونكم؟ ».

فَأَنَّ الجميع بمرارة متعجّبين من جهلي ودنا مني أحد شيوخهم وقال لي: «يا بني نحن الذين فعلنا ذلك بأنفسنا لأنّ الله سلّطنا على الشر الذي كان حالّا بنا (104) فاستأصلنا جرثومته». ثم قادني إلى مذبح عال وجميع الشعب يتبعنا، وهناك أشار بإصبعه إلى آية محفورة فوق المذبح (105) وطلب إليّ أن أقرأها فقرأت: «إذا كانت عينك اليمنى تشكّك فاقلعها وألقها عنك، فخير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كلّه في جهنّم. وإذا شكّكتك يدك اليمنى فاقطعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كلّه في جهنّم ».

فأدركت إذ ذاك سرّهم والتفتّ إليهم صارخًا: «أليس بينكم رجل أو امرأة بعينين ويدين؟ ».

فأجابوا قائلين: «كلّا، ليس بيننا أحد سوى الصغار الذين لم يبلغوا بعدُ رشدهم ليقرؤوا الكتاب ويعملوا بوصاياه ».

وعندما خرجنا من الهيكل أسرعت فغادرت تلك المدينة المباركة، لأنني كنت بالغًا رشدي وقادرًا على قراءة الكتاب .

الإله الصالح والإله الشرير

اجتمع الإله الصالح مرّة بالإله الشرير على قُنّة جبل (106). فقال الإله الصالح للشرير: عِمْ صباحا يا أخي !.

فلم ينبس الإله الشرير ببنت شفة (107). فقال له الإله الصالح: «يلوح لي أيها الزميل أنّ مزاجك متعكّر اليوم ».

فأجاب الإله الشرير قائلًا: «نعم، أنا مستاء جدًّا لأنّ القوم في هذه المدة الأخيرة صاروا لا يميزون بيني وبينك، وكثيرًا ما أسمعهم ينادونني باسمك ولا أكره على نفسي منك ومن اسمك !».

فقال له الإله الصالح: «إنّ هذا هو ما يحدث لي أيضًا في كلّ يوم أيّها العزيز، فإنّ كثيرين من الناس ينادونني باسمك ويحسبونني إيّاك ».

فمضى الإله الشرير في سبيله وهو يحرق الأُرَّم (108) في قلبه لاعنًا حماقة الإنسان وجهله .

في خيبتي غلبتي

يا خيبتي، يا خيبة! يا وحدتي وانفرادي! إنك لأعزّ لديّ من ألف انتصار، وأحلى على قلبي من كل أمجاد الأقطار .

يا خيبتي، يا خيبة !

يا معرفتي لنفسي واحتقاري لذاتي، بك أعْرفُ أنني لا أزال فتيًّا سريع الخُطَى، فلا تُغريني أكاليل الغار الذابلة الفانية. بكَ قد حظيت (109) بوحدتي وانفرادي وتذوّقت لذّة فراري واحتقاري .

يا خيبتي يا خيبة !

يا سيفي البتّار وتُرْسِي (110) البرّاق، قد قرأت في عينيك :

إنّ الإنسان متى جلس على عرش الملك فقد صار عبدًا .

ومتى أدرك الناس أعماق روحه فقد طُوِي كتاب حياته .

ومتى بلغ أوْجَ (111) كماله فقد قضى نحبه (112).

بل هو كالثمرة إذا نضجت سقطت واندثرت .

يا خيبتي، يا خيبة !

يا رفيقي الباسل الودود. أنتِ وحدك تسمعين إنشادي وصراخي وسكوتي، وليس غيرك بمحدثي عن خفقان الأجنحة وهدير البحار، وعن قذائف البراكين الثائرة في دوامس الليالي (113).

أنتِ وحدك تتسلّقين صخور نفسي الجلمودية الشامخة .

يا خيبتي، يا خيبة! يا شجاعتي التي لا تموت !

أنت تضحكين معي في العاصفة، وتحفرين معي قبورًا لما يموت منّي ومنك، وتقفين معي أمام وجه الشمس بجلد (114) وثبات، فنكون معا هائلين راعبين .

الليل والمجنون

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل قاتمٌ عارٍ، أمشي على طريق ناري يمتدّ فوق أحلام نهاري، وحيثما تمسّ رجليّ الأرض، فهناك تَنْبثِقُ (115) سنديانة (116) جبّارة ».

الليل: «كلا، لست مثلي أيها المجنون، فإنك مازلت تتلفّت إلى ورائك لترى آثار قدميك علي الرمال ».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل صامت وعميق، وفي قلب وحدتي تتّكئ إلاهة تتمخّض بمولود عُلوي تأتلف بكيانه الجنة والجحيم ».

الليل: «كلا، لست مثلي أيها المجنون، فإنك لا تزال ترتعش أمام الآلام فيهولك (117) سماع أناشيد الهاوية ».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل آبدٌ (118) جبّار، فإنّ أذنيّ مثقلتان بنحيب (119) الأمم المستعبدة والتحسّر على الممالك المهجورة ».

الليل: «كلا، لست مِثْلي أيها المجنون، لأنك لا تزال تتّخذ ذاتك الصّغرى رفيقًا وفيًّا، ولا تستطيع أن تتخذ لك من ذاتك الجبارة صديقًا ».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل صارم وفظيع. فإن قلبي لا يطرب إلا لرؤية لهيب المراكب المحترقة في البحار، وشفتيّ لا تستلذّان سوى دماء الأبطال المصروعين في ساحات الوغى »(120).

الليل: «كلا، لست مثلي أيها المجنون، لأنّ بك شوقًا إلى أخت روحك متسلطًا عليك يُسيّرك كيف شاء. ولم تصرْ بعدُ شريعة لنفسك ».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل، جذلٌ وطروب (121) ، فإن الرجل الذي يرافقني سكران أبدًا من الخمرة العذراء، والمرأة التي تصادقني ترتكب الإثم وهي منشرحة الصدر ».

الليل: «كلا، لست مثلي أيها المجنون، لأن روحك مقنّعة بقناع ذي طيّات سبع وأنت للآن لم تحمل قلبك على كفّك ».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل، صبور وكئيب (122) ، فإنّ صدري ألوفا من قبور المحبّين الذين ماتوا مخلصين فحنّطتهم الدموع وكفّنتهم القبلات الذابلة ».

الليل: «وهل أنت مثلي؟ أحقًا أنت مثلي أيها المجنون؟ وهل تستطيع أن تمتطي العاصفة جوادًا وتمتشق (123) البرق حُسامًا؟ ».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل، أنا مثلك قدير عظيم، وقد بنيت عرشي على آكام (124) الآلهة الساقطة وجعلت الأيام تمرّ أمامي صاغرة تقبّل أهداب ثوبي من غير أن تجرؤ على التطلّع

إلى وجهي ».

الليل: «هل أنت مثلي يا ابن قلبي الدامس المدلهم؟ هل أنت مثلي؟ وهل تخطر لك أفكاري الجامحة أم تتكلم لغتي

الواسعة البيان؟ ».

المجنون: «بلى، إنّنا أخوان توأمان أيها الليل، فأنت تكشف مكنونات اللانهاية، وأنا أكشف مكنونات نفسي ».

الوجوه

رأيت وجهًا يظهر بألف مظهر، ووجهًا مظهره واحد أبدًا كأنما قد سُبِك (125) في قالب .

ورأيت وجهًا قَدَرْتُ (126) أن أقرأ تحت طُلاوته (127) الظاهرة بشاعته المستترة، ووجهًا ما رأيت روعة جماله المحتجب حتى رفعت قناعه الظاهر .

ورأيت وجهًا شيخًا قد تجعد ولكن على لا شيء، ووجهًا ناعمًا قد ارتسمت على ملامحه جميع الأشياء .

أنا أعرف الوجوه لأنني أنظر إليها من خلال ماينسجه بصري فأرى الحقيقة التي وراءها بباصرتي (128).

البحر الأعظم

ذهبتُ ونفسي إلى البحر العظيم لنستحمّ بمائه. وعندما وصلنا إلى الساحل طُفْنا (129) نبحث عن مكان مستور عن الأنظار .

وفيما نحن نمشي رأينا رجلًا جالسًا على صخرة غبراء وفي يده كيس يأخذ منه حفنات من الملح ويرمي بها إلى البحر .

فقالت لي نفسي: «هو ذا المتشائم الذي لا يرى من الحياة سوى ظلّها. فلنترك هذا المكان لأنّنا لا نستطيع أن نستحمّ أمامه ».

فتركنا ذلك المكان وسرنا إلى أن بلغنا جَوْنًا (130) في الشاطئ، فإذا برجل واقف على صخرة بيضاء وفي يده صندوقة مرصعة بالجواهر يتناول منها قطعًا من السّكر ويرمي بها إلى البحر .

فقَالت لي نفسي: «هو ذا المتفائل الذي يستبشر بما لا بشر فيه. فيجب أن لا يرى جسدينا العاريين ».

فتابعنا مسيرنا إلى أن بلغنا إلى شاطئ قريب فرأينا رجلًا يلتقط أسماكًا ميتة ويعيدها إلى الماء بعطف وحنان .

فقالت لي نفسي: «هو ذا الإنساني الشفيق الذي يحاول إرجاع الحياة لمن في القبور، فلنبتعد عنه ».

فعبرنا به وسرنا إلى موضع آخر فرأينا رجلًا يخطّط ظلّه على المياه فتجيء الأمواج وتمحو خطوطه، ثم يعود فيخططه مرة بعد مرة .

فقالت لي نفسي: «هذا هو المتصوّف الذي يقيم من أوهامه صنمًا يعبده. فلنتركه ».

فخلّفناه (131) وراءنا إلى جون صغير في مكان آخر فرأينا رجلًا يكشط الزَّبَد عن سطح الماء ويضعه في كأس من العقيق .

فقالت لي نفسي: «هو ذا الخيالي الذي يحوك من خيوط العناكب رداء يلبسه، وهو لا يستحق أن يرى جسدينا العاريين ».

ثم سرنا قليلًا فسمعنا بغتة (132) صوتًا يقول: «هذا هو البحر! هذا هو البحر العميق! هذا هو البحر الواسع الجبّار!» فسعينا إلى حيث خرج الصوت، فإذا برجل قد ولّى ظهره شطر البحر ووضع على أذنيه صدفة كالقرن وقعد يصغي إلى ما تُرجعه من الصدى .

فقالت لي نفسي: «سر بنا، فهذا هو الدّهري الذي ينصرف عن الكليّات التي تتجاوز فهمه إلى الجزئيّات التافهة التي لا طائل (133) تحتها ».

فخلفناه وراءنا وانطلقنا إلى موضع آخر، فإذا برجل منحن بين الصخور وقد غمر رأسه بالرّمل، فقلت لنفسي: «هلُمّي يا نفس لنستحمّ ههُنا لأنّ هذا الرجل لا يستطيع أن يبصرنا ».

فهزّت نفسي رأسها وقالت: «كلا وألف لا، فإن هذا الذي تراه هو شرّ خلق الله، هو الرافضي الخبيث الذي يحجب نفسه عن مأساة الحياة فتحجب الحياة أفراحها عن قلبه ».

فبدت إذ ذاك على وجه نفسي أمارات (134) الحزن والأسى، وبصوت تقطعه المرارة قالت: «هلمّ بنا ننصرف من هذه الشواطئ لأنه ليس فيها مكان خفيّ آمن نستحمّ فيه. فلن أرضى أن تعبث هذه الريح بشعري الذهبي، ولا أن يكشف هذا الهواء عن صدري الناصع، ولا أن يُظهر هذا النور عُرْيِي المقدّس ».

حينئذ تركنا ذلك البحر ناشدين (135) البحر الأعظم .

المَصْلَوب

صرخت بالناس قائلا: «أودّ لو تصلبونني». فقالوا: «ولماذا يكون دمك على رؤوسنا؟» فقلت لهم: «وكيف تفاخرون بأنفسكم إن لم تصلبوا المجانين؟ ».

فقبلوا قولي وصَلَبوني. وهدّأ الصلب ثورة نفسي. وعندما كنت مُعلّقا بين الأرض والسماء رفعوا رؤوسهم وحدّقوا (136) إليّ وهم يتمايلون عُجبا لأنّ رؤوسهم لم ترفع قبل إلى ما فوق أقدامهم .

وفيما هم مجتمعون حول الصليب رفع واحد منهم صوته وقال لي: «عن أيّ ذنب تكفّر يا هذا؟ ».

ثم قال آخر: «بربّك قل لنا ما الذي دعاك إلى التضحية بنفسك؟ ».

وتلاه ثالث فسألني قائلًا: «أو تظن أيها الجاهل أنك تشتري مجد العالم بهذا الثمن البخس (137) الذي تقدمه؟ ».

ثم قال رابع: «تأمّلوا ابتسامته الخرساء كأنْ لم يَحلْ به شيء! وهل في استطاعة بَشَري أن يبتسم لمثل هذا الألم؟ ».

فالتفتُّ إليهم إذ ذاك وقلت لهم: «اذكروا ابتسامتي هذه ولا تذكروا شيئًا غيرها. فأنا لا أكفّر عن ذنب ولا أسعى إلى تضحية ولا أرغب في مجد وليس لي ما أَصْفَح عنه. ولكنني قد عطشت فسألتكم دمي شرابًا. وهل من شراب يبرد غلة المجنون سوى دمه؟ أجل! وكنت أبكم فسألتكم الجراح أفواهًا. وكنت سجينًا في ظلمة أيامكم ولياليكم فالتمست سبيلًا يؤدي بي إلى أيام أبهى من أيامكم وو ليالٍ أسعد من لياليكم ».

«وها أنا ذا ماض الآن إلى حيث مضى كثيرون ممّن صُلِبوا قَبلي. ولكن لا يخطر لكم أننا معاشر المصلوبين نعبأ (138) بصلبكم، لأنه قُدّر لنا أن نصلب من قبل جبابرة أشدّ منكم قدرة وبطشًا بين الأرضين الدنيا والسماوات العليا ».

الفلكي

رأيت وصديقًا لي أعمى جالسًا في ظلال الهيكل وحده، فقال لي صديقي: «هو ذا أحكم رجل في قومنا ».

فتركت إذا ذاك صديقي ودنوت من الأعمى فحييته وقعدت بجانبه أجاذبه أطراف الحديث. وبعد هنيهة (139) سألته قائلًا: «منذ كم أنت أعمى ياسيدي؟ ».

فأجابني وقال: «منذ ولادتي يا بُني ».

فقلت له: «وأي مذهب من مذاهب الحكمة (140) تتبع؟ ».

فأجاب قائلًا: «أنا فلكيٌّ منجِّم ».

ثم وضع يده على صدره وزاد قائلًا: «إنني أرصد هذه الشموس وهذه الأقمار وهذه النجوم ».

الحنين الأعظم

ها أنا جَالسٌ بين أخي الجبل وأختي البحر، ونحن الثلاثة واحد في عزلتنا تربطنا محبة عميقة قوية غريبة .

محبَّة أعمق من أعماق أختي وأقوى من قوة أخي وأغرب من غرائب جنوني .

وكم هنالك من دهور تقضّت قبل أن يبدّد الفجر الأول دياجير (141) الظلمة عنّا فرأى أحدنا أخاه .

قد شاهدنا ولادة كثير من العوالم واكتمالها وانحلالها بَيْد (142) أننا بعدُ أحداثٌ توّاقون (143).

أجل، نحن أحداث توّاقون ولكننا وحيدون مُهمَلون .

نتّكئ متعانقين عناقًا أبديًّا ولكننا غير مستريحين. وهل من راحة لشوق مُستعبَد وشهوة لا تنفد (144) ؟

أين إله النار الملتهب فيدفئ مضجع أختي؟

أين إلاهة الغيث الفياضة فتخمد براكين أخي؟

وأنا أشقى الاثنين. من أين لي المرأة التي تتسلّط على قلبي؟

في سكينة الليل (145) تردّد أختي في أحلامها اسم إله النار المجهول لتدفئتها .

وينادي أخي إلاهة الغيث القصيّة لتبريد غلته. أمّا أنا فَمَنْ تُرى أنادي في غفلتي؟

لست والله أدري؟ لست والله أدري !

ها أنا ذا جالسٌ بين أخي الجبل وأختي البحر .

ونحن الثلاثة واحد في عزلتنا،

تربطنا محبة عميقة قوية غريبة .

وُرَيْقة عُشْبٍ وورقة خَرِيف

قالت وريقة عشب لورقة خريف: «إنك تُحدِثين بسقوطك جلبة (146) فتبعثرين أحلام شتائي ».

فأجابتها الورقة مغتاظة: «أيتها الدنيئة أَصْلًا وفَصْلًا (147) ، الفظّة المعقودة اللسان، من أين لك الأحلام وأنت ملتصقة بقذارات الغبراء (148) بعيدة عن موسيقى الفضاء لا تُميّزين بين الغناء والمُواء؟ ».

قالت ورقة الخريف ذلك وهبطت على الأرض فنامت .

وعندما جاء الربيع أفاقت من نومها فإذا بها وريقة عشب .

ثم أقبل الخريف ووافتها هجعة الشتاء فنثر الهواء حواليها أوراق الأشجار الذابلة فتململت في ذاتها قائلة: «أفّ من أوراق الخريف الثقيلة! إنها تحدث بسقوطها جلبة وضجيجًا (149) فتبعثر أحلام شتائي ».

العين

قالت العين يومًا لرفيقاتها الحواس: «إنني أرى وراء هذه الأودية جبلًا مبرقعًا بالغيوم فما أجمله جبلًا !».

فأصغت الأذن هنيهة لحديثها ثم قالت لها: «أين ذلك الجبل الذي تنظرين؟ إنّني لا أسمع صوته ».

ثم قالت اليد: «أما أنا فعبثًا أحاول أن أشعر به أو ألمسه. فليس هنالك جبل ألبتة »(150).

وقال لها الأنف: «إنني لا أستطيع أن أفهم كيف يوجد الجبل وأنا لاأقدر أن أشمه. ألا إن وجوده لمستحيل ».

فتحوّلت العين إلى جهة أخرى ضاحكة في ذاتها. أما الحواس الأخرى فعقدن مجلسًا بحثن فيه عمّا دعا إلى مثل هذا الضلال. وبعد البحث الدقيق قرّرن بإجماع الآراء: «إن العين قد خرجت ولاشك عن صوابها ».

العالمان

كان في مدينة أفكار القديمة عالمان. وكان كل منهما يمقت (151) معرفة الأخر ويحتقرها. وكان الأول كافرًا والثاني مؤمنًا .

وحدث أنهما اجتمعا مرة في ساحة المدينة وطفقا (152) يتجادلان (153) ويتحاجّان أمام أنصارهما في وجود الآلهة أو عدم وجودها. وبعد أن حمي وطيس الجدال (154) بينهما بضع ساعات مضى كل منهما في سبيله .

وفي ذلك المساء بعينه ذهب الكافر إلى الهيكل وجثا على ركبتيه أمام المذبح مستغفرًا الآلهة عن جموح ماضيه

وصار مؤمنًا .

وفي الساعة نفسها أخذ المؤمن كتبه المقدسة فحرقها في ساحة المدينة وصار زنديقًا كافرًا .

عندما وُلدت كآبتي

عندما وُلِدت كآبتي أرضعتها حليب العِنَاية وسهرتُ عليها بعين الحب والحنان .

فَنَمَتْ (155) كآبتي كما ينمو كل حيّ، قوية جميلة تفيض بهجة وإشراقًا .

فأحببت كآبتي وأحبتني كآبتي، وأحببنا معًا العالم المحيط بنا، لأن كآبتي كانت رقيقة القلب عطوفًا فصيّرت قلبي رقيقًا عطوفًا .

وعندما كنا نتحادث معًا، أنا وكآبتي، كنا نتّخذ الأحلام أجنحة لأيّامنا ومناطق لليالينا، لأن كآبتي كانت فصيحة طليقة اللسان فصيرت لساني فصيحًا طليقًا .

وعندما كنا نغنّي معًا، أنا وكآبتي، كان جيراننا يجلسون إلى نوافذهم مُصغين إلى غنائنا، لأن غناءنا كان عميقًا كأعماق البحر وغريبًا كغرائب الذكرى .

وعندما كنا نمشي، أنا وكآبتي، كان الناس يرنون (156) إلينا بعيون تشعّ حبًّا وإعجابًا متحدّثين بنا بأرقّ الألفاظ وأحلاها، غير أن بعضًا منهم كانوا ينظرون إلينا بعيون الحسد، لأن الكآبة كانت مَنْقَبَة (157) محمودة وأنا كنت متباهيًا فخورًا بالكآبة .

ثم ماتت كآبتي كما يموت كل حيّ وبقيتُ أنا وحدي مفكّرا متأملًا .

وها أنا ذا أتكلم الآن فتستثقل أذناي صوتي، وأنشد فلا يصغي أحدٌ من جيراني لإنشادي، وأطوف في الشوارع فلا يعبأ أحدٌ بي، غير أنني أتعزّى إذ أسمع في منامي أصواتًا تقول متحسرة :

«انظروا! انظروا! فهنا يرقد الرجل الذي ماتت كآبته ».

وعندما وُلدت مسرتي

وعندما وُلدت مسرّتي حَمَلْتُها على ذِراعي وصَعدتُ بها إلى سطح بيتي أنادي قائلًا: «تعالوا يا جيراني ومعارفي، تعالوا وانظروا! فقد وُلِدَتْ مسرتي اليوم. تعالوا وانظروا فيض (158) مسرتي الضاحكة أمام الشمس ».

وشدّ ماكان دهشي لأنه لم يأت أحدٌ من جيراني ليرى مسرتي .

وظللتُ سبعة أشهر أعلن مسرتي للناس بكرة وأصيلًا من على سطح بيتي لكن لم يصغ أحد قط لصوتي، فبقيت ومسرتي وحيدين مهملين لايعبأ أحد بنا .

وما مرّ على ذلك سنة حتى سَئِمَتْ مسرتي حياتها فامتقع (159) لونها واعتلت إذ لم ينبض بحبّها قلب سوى قلبي، ولم يقبّل فمها سوى فمي. فقضت مسرتي في وحشتها وأمسيت لاأذكرها إلا عندما أذكر كآبتي .

وما الذكرى سوى ورقة خريف لا ترتعش في الهواء هنيهة حتى تُكفَّن بالتراب دهرًا .

العالم الكامل

يا إله النفوس الضائعة، أيها الضائع بين الآلهة استمعني .

أيها القدَرُ الرّحيم السّاهر على نفوسنا التائهة المجنونة أصْغ إليّ: فإنّي وأنا ناقص أعيش بين الكاملين من البشر. أنا، أنا البشرية المشوّشة، السّديم (160) المضطربُ العناصر، أتخطّر (161) بين عوالم تامّة من شعوب قد كَملت شرائعهم، وتنزّهت نظمهم وتنسّقت أفكارهم، وترتبت أحلامهم، وتسجّلت رؤاهم في الأسفار والدواوين .

رباه! إن هؤلاء الناس يقيسون فضائلهم بالمقاييس ويزنون خطاياهم بالموازين، ولديهم سجلّات وفهارس لما لا يُحْصَى من التّوافه والنّقائص التي ليست بالخطايا فتُعرف ولا بالفضائل فتُنصف .

ويقسمون أيامهم ولياليهم إلى أقسام مقنّنة مرتّبة. فيفعلون كلّ شيء في حينه على وفق ما يخطر لهم. فالأكل والشرب والنوم وكساء العرية ثم السآمة والضجر، كلّ في حينه .

والعمل واللعب والغناء والرقص ثم الاستراحة عندما تحين ساعتها .

التفكير بهذا والشعور بذاك ثمّ العدول عن التفكير والشعور عندما يشرق نجم الأمل السعيد فوق الأفق البعيد .

سَلْبُ الجار بثَغْر باسم ومنحُ العطايا بيد تتوقّع الثناء والشكر، ثم المديح بفطنة والمُلامة بتروّ وقتل النفس وإحراق الجسد بقبلة وغسل اليدين عند المساء كأن لم يكن هنالك من شيء .

المحبة بتقليد مطروق، والتسلية على منوال مسبوق، وعبادة الآلهة كما يحقّ ويليق، والاحتيال على الشياطين والمكر بالزنديق، ثم نسيان كلّ ما جرى وصار كأن الذاكرة حلم من أحلام الأغرار (162).

التصوّر لغاية والتأمّل بعناية والمسرّة بدراية والتألّم بوقاية ثم إفراغ كأس الآمال رجء (163) أن تملأها الأيام في المآل .

رباه، رباه! إن جميع هذه يسبق الفكر فيحبل بها والعزيمة فتلدها والدقة فتربّيها والنظام فيسودها والعقل فيديرها، ثم تُنحر وتُلحد (164) في زاوية سكينة النفوس فتبقى قبورها الموسومة بالعلامات والأرقام عظة لنا ولجميع الأنام .

أجل، هذا هو العالم الكامل الذي قد بلغ أوجّه، عالم الغرائب والمعجزات، بل هو أنضج ثمرة في جنان الله وأسمى عالم بين عوالمه. ولكن لم أنا ههنا يا رب؟ أنا ههنا وأنا ثمرة عجراء لم تنل بعدُ شهوتها من النّماء، وعاصفة صماء هوجاء لا شرقًا تبتغي ولا غربًا، وذرّة هائمة تائهة من كوكب

محترق ثائر !

لِمَ أنا ههنا؟ لم أنا ههنا يا إله النفوس الضائعة، أيها الضائع بين الآلهة !.

السابق

أنت سابق نفسك ...

أنت سابق نفسك يا صاح، وما الأبراج التي أقمتها في حياتك سوى أساسٌ لذاتك الجبّارة. وهذه الذات في حينها ستكون أساسا لغيرها .

وأنا مِثْلُك سابقُ نفسي، لأنّ الظلّ المنبسط أمامي عند شروق الشمس سيتقلّص تحت قدمي عند الظهيرة. وسيعقب هذا الشروق شروق آخر، فيُحدث ظلًا ثانيًا أمامي، ولكن هذا الظل عينه سيتقلص تحت قدمي أيضًا في ظهيرة أخرى .

منذ البدء ونحن سابقو نفوسنا، وسنبقى سابقي نفوسنا إلى الأبد. وليس ما حشدنا ونحشد في حياتنا سوى بذور نَعُدّها لحقول لم تُفلَحْ (165) بعد. نحن الحقول ونحن الزارعون. نحن الأثمار ونحن المستثمرون .

عندما كنت يا صاح فكرة هائمة (166) في الضباب كنتُ هنالك فكرة هائمة مثلك، فنشدتُك ونشدتني، فكانت من تشوّقاتنا الأحلام، والأحلام كانت زمانًا بلا قيود، والأحلام كانت فضاءً بلا حدود .

وعندما كنتَ كلمة صامتة بين شفتي الحياة المرتعشتين، كنت أنا مثلك هنالك كلمة صامتة، وما تلفّظت الحياة بنا حتى برزنا (167) إلى الوجود وقلبانا يخفقان بتذكارات الأمس والحنين إلى الغد. وما الأمس سوى الموت مطرودًا ولا الغد سوى الميلاد مقصودًا .

وها نحن الآن في يديّ الله، فأنت شمسٌ منيرة في يمناه، وأنا أرضٌ مستنيرة في يسراه، ولكنّ قُوَّتك على الإنارة ليست بأفضل من قوّتي على الاستنارة .

وما نحن، الشمس والأرض، إلا بداءة لشمس أعظم وأرض أعظم، وسنبقى بداءة إلى الأبد .

أنت سابق نفسك أيها الغريب العابر بباب حديقتي، وأنا مثلك سابق نفسي، ولو كُنْتُ أجلسُ في ظلال أشجاري وأبدو ساكنا هادئا .

البُهْلَول

جاء في قديم الزمان رجلٌ من البادية إلى مدينة الشريعة العظيمة، وكان بهلولًا خياليًا، ولم يكن له من متاع سوى

ثوبه وعصاه .

فكان يطوف في شوارع المدينة ويتأمّل هياكلها وأبراجها وقصورها بإعجاب وإجلال، لأنَّ مدينة الشريعة كانت غاية في الجمال. وكان بين الآونة والأخرى يخاطب العابرين به مستفهمًا عن مدينتهم وغرائبها، فلم يفهموا لغته كما أنّه لم يفهم لغة أحد منهم .

وعند انتصافَ النهارِ وقفَ أمام فُندق فسيح الأرجاء، بديع الهندسة والإتقان، وكان الناس يدخلون إليه ويخرجون منه من غير اعتراض .

فقال البهلول في ذاته: «لا شَكَّ أن هذا مزارٌ مقدّس». ودخل مع الدّاخلين .

وشدّ ما كانت حَيْرَته عندما وجد نفسه في بهو عظيم، وكبراءُ القوم، من رجال ونساء، جالسون إلى كثير من الموائد الأنيقة، يأكلون ويشربون، والموسيقيون يشنّفون آذانهم بأطرب

العزف والغناء .

فقال البهلول إذ ذاك في ذاته: «قد ضللت، فما هذه بالعبادة التي توّهمت، بل هذه مأدبة أعدّها الأمير لشعبه تذكارًا لحادث جلل ».

وفي تلك الدقيقة دنا منه رجل، خُيِّل إليه أنّه عبد الأمير، وسأله أن يجلس مع الجالسين، فجلس. فقُدِّمت إليه اللحوم، والخمور، والحلوى أفخرها وأشهاها،فأكل هنيئًا وشرب مريئًا .

وعندما بلغ كفافه (168) همّ بالانصراف، ولكنّه ما وصل إلى الباب حتى دنا منه رجل بادن (169) متأنّق اللباس فأوقفه .

فقال البهلول في نفسه: «لا شكّ أنّ هذا هو الأمير بعينه». فانحنى أمامه وحيّاه باحترام وشكره بلغة قبيلته .

أما الرجل البادن فخاطبه بلغة المدينة، قائلا له: «يا سيدي، إنّك لم تدفع بعدُ ثمن غدائك ».

فلم يفهم البهلول شيئًا، ولكنّه شكره ثانية من صميم قلبه. فتأمّله الرجل البادن جيِّدًا، وبعد أن أَمْعنَ النظر (170) في وجهه مليًا، أدرك أنّه غريب عن المدينة، وعَرفَ من ثيابه الرّثة (171) أنه فقير الحال وليس له ما يدفعه ثمن غدائه، فصفق مناديًا، فجاء على الفور أربعة من حراس المدينة ومَثُلوا (172) بين يديه فقصّ عليهم قصة البهلول، فألقوا القبض عليه في الحال، ومشوا به اثنين اثنين إلى جانبيه، أمّا البهلول فكان يتأمّل ملابسهم المزركشة، وهو يكاد يطير فرحًا، قائلًا في سرّه: «لا شك في أن هؤلاء من أشراف المدينة ».

فسار الحراسُ به إلى أن بلغوا دار القضاء، فدخلوا إلى قاعة المحاكمة فرأى البهلول أمامه، في صدر تلك القاعة، رجلًا جليلًا، جالسًا على منصّة عالية، تجلّله المهابة وتزيده لحيته البيضاء المسترسلة على صدره هيبةً ووقارًا، فخُيِّل إليه أنه الملك بعينه، وطارت نفسه فرحًا لمثوله أمامه .

ثم بسط الحُرَّاس دعواهم إلى القاضي، فعيّن القاضي محاميين، واحدًا ليدّعي على البهلول، وآخر ليتولّى الدفاع عنه. فنهض المحاميان الواحد تلو الآخر وأدلى كلٌّ بحججه .

أما البهلول فظنّ أنهما يرحّبان به باسم الملك، فامتلأ قلبه بعواطف المنّة ومعرفة الجميل للملك، وللأمير، على كل ما جرى له .

وعند انتهاء المحاكمة حكم القاضي بما يأتي على البهلول: «يجب أن تُكتب جريمته على لوحة، وتُعَلَّق على صدره، ثم يركب حصانًا عاريا، ويطاف به في المدينة، ويسير المزمّرون والمطبّلون أمامه ».

فنُفِّذ الحكم في الحال، وأُركِب البهلول حصانًا عاريا وطيف به في شوارع المدينة، وسار المزمّرون والمطبّلون أمامه، وكان سكان المدينة يتراكضون على سماع الأصوات فينظرون إليه وهو على تلك الحالة، ويغرقون في الضحك أفرادًا وجماعات. وكان الأولاد يركضون وراءه من شارع إلى شارع زرافات زرافات .

أمّا البهلول فكان ينظر إليهم بعينين مشرقتين فرحًا والدهش آخذ مأخذه. لأنه كان يعتقد أن اللوحة المعلقة على صدره إنّما هي وسامٌ قدَّمهُ له الملك عربون بركته ورضاه عن زيارته، وأنّ ذلك الموكب ما سار إلا احتفاءً بحضرته .

وحدث أنه فيما هو راكبٌ والجمع يَحْشُده، رأى بينهم بدويًا من قبيلته، فاختلج قلبه طربًا، وهتفَ به بأعلى صوته قائلا: «بربّك يا صاح! أين نحن الآن؟ أليست هذه المدينة التي يُسمّيها شيوخنا مدينة رَغائِب القلب، وشعبها الأرْيَحِيُّون (173) الفيّاضون (174) ، الذين يحتفون بعابر السبيل في قصورهم، ويرافقه أمراؤهم، ويشرّف ملكهم صدره بالنيّاشين فاتحًا له أبواب مدينته الهابطة من السماء؟ ».

فلم يقل البدوي الثاني كلمة قط، ولكنه تبسّم وهزّ رأسه .

أما الموكبُ فاستمر في سيره. وكان وجه البهلول مرتفعًا أبدًا والنور يفيضُ (175) من عينيه .

المحبّـة

يقولون إنّ ابن آوى يشرب من الجدول الواحد الذي يشربُ منه الأسد.ويقولون إنّ النسر والشوحة ينقدان الجيفة الواحدة وهما متّفقان متسالمان .

فيا أيّتها المحبّة العادلة، ويا من كَبَحْتِ جِماحَ (176) رغائبي بيدك القديرة، وحوّلت مجاعتي وعطشي إلى إباءٍ وشمم (177) ، لا تأذني للقويّ العزومِ فيّ أن يأكل الخبز أو يشرب الخمر اللّذين يستهويان ذاتي الضعيفة .

ذَرِيني بالأحرى فأقضي جوعًا، بل دَعي قلبي يلتهب عطشًا .

واتركيني أموت وأفنى، قبل أن أمدَّ يدي لقدح لم تملئيه أو كأس لم تباركيها .

الملك الناسك

خُبِّرتُ أنَّ فتى يعيش في غابة بين الجبال، وأنّه كان فيما مَضَى ملكًا على بلاد واسعة الأرجاء في عبر النهرين. وقيل لي أيضًا إن هذا الفتى قد تخلّى، بملء اختياره، عن عرشه وعن أرض أمجاده، وجاء ليستوطن القِفار (178).

فقلت في نفسي: لأسعينّ إلى ذلك الرجل سَعْيًا، وأقف على ما في قلبه من أسرار، لأن من يتنازل عن المُلك فهو بلا شك أعظم من المُلك !!!

فذهبتُ على الفور إلى الغابة حيثما كان قَاطِنًا (179). فوجدته جالسًا في ظلال سروة بيضاء، وبيده قصبة كان ممسكًا بها كأنما هي صولجان. فحييته تحية الملوك، وبعد أن ردّ التحية التفتَ إليّ وقال بلطف: «ما عَسَاك تبتغي في هذا الغاب الأعزل يا صاحبي؟ أجئت تنشد ذاتًا ضائعةً في الظلال الخضراء، أم هي عودة إلى مسقط رأسك عند انقضاء شغل النهار؟ ».

فأجبته قائلا: «إنني ما نشدت إلّاك، ولا شاقني (180) إلا الوقوف على ما حدا بك (181) إلى استبدال مملكتك الكبيرة بهذه الغابة الحقيرة !».

فقال: «وجيزةٌ هي قصتي، فقد انطفأت فقاقيع غروري فجأة. واليك حكايتي :

بينما كنت جالسًا إلى نافذة في قصري، كان وزيري يتمشى مع سفير أجنبي في حديقتي. وعندما صارا على مقربة من نافذتي سمعت الوزير يتكلم عن نفسه قائلًا: «أنا مثل الملك أتعطش للخمرة المعتقة، وأعشقُ جميع ضروب المُقَامرة، ويثور بي ثائر الغضب كسيدي الملك». ثم توارى الوزير والسفير بين الأشجار. ولكنّهما ما لبثا أن عادا بعد بُرْهَة، وإذا بالوزير يتكلّم عني في هذه المرة قائلا: «إنّ سيّدي الملك مثلي يُحْسِنُ الرماية ويتعشّق الألحانُ، وهو مثلي يستحمّ ثلاثًا في النهار ».

وسكت لحظة ثم زاد قائلا: «في عشية ذلك اليوم تركت بلاطي، ولا شيء معي سوى عباءتي، لأنّي لم أشأ بعد ذلك أن أكون ملكًا على قوم يدعون نقائصي لأنفسهم، ويعزون

فضائلهم إليّ ».

فقلت له: «ما أغرب قصتك، وما أعجب أمرك !».

فأجابني قائلًا: «ليس هنالك من غرابة يا صاحبي، فقد قرعت أبواب سكينتي طامعًا منها بالكثير، فلم يكن لك منها سوى اليسير. بربّك قل لي من لا يستبدل مملكةً بغابة تترنّم فيها الفصول، وترقص طروبًا أبدًا؟ كثيرون هم الذين تركوا ممالكهم ليستبدلوها بأدنى مراتب الوحدة، والتمتع بحياة العزلة السعيدة، وكم هناك من نسور هبطت من جوّها الأعلى لتعيش مع المناجذ (182) في أنفاقها الصامتة، فتتفهّم أسرار الغبراء! بل ما أكثر الذين يعتزلون مملكة الأحلام لئلا يظهروا للناس أنهم بعيدون عمّن لا أحلام في نفوسهم، والذين يعتزلون مملكة الغُري ساترين عُرية نفوسهم، حتى لا يَسْتحي الأحرار من النظر إلى الحق عاريًا والتأمل بالجمال سافرًا. وأعظم من هؤلاء جميعهم ذاك الذي يعتزل مملكة الحزن، لكي لا يظهر للناس معجبًا مفاخرًا بكآبته ».

ثم نهض متوكئًا على قَصَبته وقال: «ارجع الآن إلى المدينة العظمى، وقف بأبوابها مراقبًا جميع الداخلين إليها والخارجين منها. واعْنَ بأن تجد الرجل الذي على رغم أنه وُلِد ملكا فهو بدون مملكة .

والرجل الذي على رغم أنه مَسُودٌ بجسده فهو سَائِد برُوحه، ولكنه لا يدري بذلك ولا رعاياه يدرون بسيادته. والرجل الذي يبدو للعِيَان حاكمًا ولكنه بالحقيقة عبد لعبيد عبيده ».

وبعد أن فرغ من كلامه نظر إليّ فلاحت لي منه ابتسامه خِلْتُها ألف فجر وفجر .

ثم تحوّل عني متغلغلًا في قلب الغابة .

أما أنا فرجعت إلى المدينة، ووقفت بأبوابها أراقب العابرين بي، على نحو ما قال لي. وما أكثر الملوك الذين مرت ظلالهم فَوقي، منذ ذلك اليوم حتى الساعة، وأقل الرّعايا الذين مرّ

فوقهم ظلّي !

الظلْمُ مَرْتَعه وَخِيم (*)

هذه أغنية التنّينة التي تحرس كهوف البحر السبعة : «سيأتي قريني راكبًا على الأمواج،

«وسيملأ الأرض رُعبًا بهديره العجاج،

«وستندلع نيران مِنْخَريه في أقاصي الفضاء .

«عند خسوف القمر سأزفّ إليه،

«وعند كُسوف الشمس سألد جورجيوس (183) آخر فيذبحني ».

هذه أغنية التنّينة التي تحرس كُهُوف البحر السبعة .

بنت الأسد

وقف أربعة عبيد يروّحون بمراوحهم لملكة حيزبون (184) ، كانت نائمة على عرشها تغطّ غطيطًا غليظًا. وكان في حِضْن الملكة هِرّة متكئة تموء (185) وهي تنظر إلى العبيد نظرة كرهٍ واشمئزاز .

فقال العبد الأول لرفقائه: «ما أبشع هذه الحيزبون نائمة! انظروا كيف تراخت شفتاها، وهي تصعد أنفاسها كأنما الشيطان آخذ بخناقها ».

فماءت الهرة قائلة: «إنَّ بشاعتها في رقدتها ليست جزءًا من بشاعتكم في عبوديتكم المستيقظة ».

ثم قال العبد الثاني: «ومن الغريب أن النوم لم يلطّف ملامح وجهها بل زادها تجعّدا، فهي ولا شك حالمة حلمًا شريرًا راعبًا ».

فماءت الهرة قائلة: «حبّذا لو تنامون أنتم وتحلمون بحريتكم !».

فقال العبد الثالث لرفقائه أيضًا: «يَلُوح (186) لي أنها ترى في مَنامها موكب جميع ضحاياها الذين قتلتهم ظُلمًا وعدوانًا ».

«فماءت الهرة قائلة: «نعم، فهي ترى مواكب أجدادكم وحفدتكم ».

ثم قال العبد الرابع: «ما أغباكم تتحدثون عن هذه الملكة وهي نائمة، وماذا يجديكم الحديث نفعًا أو يجديني؟ ألعله يخفف عني نصيبي في وقوفي وعَنائي في ترويحي لها؟ ».

فقالت الهرة وهي تموء: «أجل، إنكم ستروّحون إلى دهر الداهرين، لأنه كما على الأرض كذلك في السماء ».

وفي تلك اللحظةِ تحركت الملكة في نومها فسقط تَاجُها على الأرض. فقال واحد من العبيد: «إن في ذلك لشُؤما !».

فماءت الهرة وقالت: «مَصَائِبُ قوم عند قومٍ فَوائدُ ».

فقال العبد الثاني: «ماذا يحلّ بنا إذا أفاقت الآن ورأت تاجَها ساقطًا على الأرض؟ والله إنها تذبحنا جميعا !».

فماءت الهرة قائلة: «قد كانت تذبحكم منذ ميلادكم أيها الأغبياء وأنتم لا تعلمون ».

وقال العبد الثالث: «إنها ولا شك تذبحنا، وتعتبر أنها بعملها هذا إنما تقرب عبادة لآلهتها ».

فماءت الهرة قائلة: «لا يَضْحي للآلهة إلا الضعفاء ».

أما العبد الرابع فأسكت رفقاءه عن الكلام، والتقط التاج بتأنٍ (187) ووضعه على رأس الملكة من غير أن يوقظها .

فماءت الهرة وقالت بصوت عال: «الحقّ أقولُ لكم: إنه لا يلتقط التيجان المتدحرجة سوى العبيد ».

وبعد هُنيهة استيقظت الملكة وتلفتت حواليها متثائبة، ثم قالت لعبيدها: «يُخَيّل إليّ أني حلمتُ بأني رأيت أربع حشرات يطاردها عَقْرب حول جذع سنديانة جبارة. قبّحه الله من حلم مزعج !».

وأطبقت عينيها فنامت ثانية بعد أن ملأت القاعة بغطيطها، فطفقَ العبيد الأربعة يروحون لها على عادتهم .

أما الهرة فماءت قائلة لهم: «رَوِّحوا رَوِّحوا أيها العميان والأغبياء، فما أنتم تروّحون إلا نارا تلتهم وجودكم !».

القديس

زرتُ في حداثتي قديسًا في صَوْمَعته الهادئة، القائمة بين التلال. وفيما كنا نبحث ماهية (188) الفضيلة أطل علينا لص وهو يتعرّج على الجانبين فوق الروابي. والتعب قد أعياه (189). وعندما وصل إلى الصومعة جثا (190) على ركبتيه أمام القديس وقال له: «أيها القديس الشفيق قد جئتك طالبًا تعزية، فإن آثامي قد تعالت فوق رأسي ».

فأجابه القديس قائلًا: «يا ابني، إن آثامي أنا أيضًا قد تعالت فوق رأسي ».

فقال له اللص: «عفوك يا سيدي! فأنا سارقٌ، وقاطعُ طريقٍ، ويستحيل أن تكون مثلي ».

فأجابه القديس: «إنك واهمٌ يا ابني، فإنني بالحقيقة مثلك سارق وقاطع طريق ».

فقال له اللص: «ماذا تقول يا سيدي؟ فأنا قاتلٌ ودِماءُ الكثيرين من الناس تصرخُ في أذني ».

فأجابه القديس قائلًا: «وأنا أيضًا قاتل يا ابني، وفي أذني تصرخ دماء الكثيرين ».

فقال له اللص: «يا سيدي أنا قد ارتكبت شرورا لا تُحصى، وجرائم لا عداد لها، فكيف تساوي نفسك بي وأنت رجل الله البار؟ ».

فأجابه القديس وقال: «لو أنك عرفت كثرة شروري لما ذكرتَ شرورَك ».

فانتصب (191) اللص إذ ذاك وحدّق إلى القديس طويلًا، وملأ عينيه دهشة وغرابة، ومضى من غير أن ينبس ببنت شفة .

أما أنا فكنت صامتًا إلى تلك الدقيقة. فالتَفتُّ آنئذ إلى القديس، وسألته قائلًا: «ما دعاك إلى أن تنسب لنفسك شرورًا لم ترتكبها قط يا سيدي؟ ألا ترى أن هذا الرجل قد مضى ولم يعد من المصدّقين بدعوتك، والمؤمنين ببشارتك؟ ».

فأجاب القديس وقال: «أجل يا بُني، فإنك بالصواب حكمت، بأنه لم يعد من المصدّقين بدعوتي، ولكن الحق أقول لكَ إنه قد انصرف والعزاء يملأ فؤاده ».

وفي تلك اللحظة سمعنا اللص يغني من بعيد، وكانت الأودية تردّد صدى صوته الممتلئ بالمسرة والتعزية .

الطمع

رأيت في جولاتي في الأرض وحشًا على جزيرة جرداء، له رأسٌ بشري وحوافرٌ من حديد .

وكان يأكل من الأرض ويشرب من البحر بلا انقطاع. فوقفت أراقبه رَدَحًا (192) ، ثم دنوت منه وسألته قائلًا: «ألم تبلغ كَفَافَك (193) بعد؟ أليس لجوعك من شبع أو لظمئك من ارتواء؟ ».

فأجابني وقال: «نعم، نعم، قد بلغت كفافي، بل قد مللت الأكل والشرب، ولكنني أخاف أن لا تبقى إلى غد أرض لآكل منها، وبحر لأرتوي من مائه ».

الذات العظمى (*)

حدث بعد تتويج نُفسيبعل، ملك جبيل، أنه انصرف إلى مَقْصُورته، وهي الغرفة التي بناها له عرافو الجبل النُّساك، فنزع تاجه، وخلع «برفيره» ووقف في وسط المقصورة، مفكرًا في عظمته المتناهية، كملك جبيل الواسع السلطان في ذلك الزمان .

وكان في صَدْر (194) تلك المقصورة مرآة مفضضة الإطار، أهدتها إليه أمه، فالتفت إليها بغتةً، وإذا برجل عَارٍ قد خرج منها تقدم إليه .

فأخذ الرعب بمجامع قلبه وصرخ بالرجل قائلا: «ماذا تريد أيها الرجل؟ ».

فأجابه الرجل وقال: «أودّ شيئًا واحدًا أيها الملك، وهو أن تُخبرني لماذا توّجوك مَلِكًا على هذه البلاد؟؟ ».

فقال له الملك: «قد توّجوني مَلِيكا عليهم لأنني أَنْبَلُ رجلٌ بينهم ».

فقال له الرجل: «والله لو كنت أنبل مما أنت لما قبلت المُلك ».

فأجابه الملك: «بل إنما توّجوني لأنني أشدّهم بأسًا وقدرة ».

فقال له الرجل: «لو كنت بالحقيقة أشدّهم بأسًا لما قبلت أن تكون مليكًا عليهم ».

فقال له الملك: «ألا إنما توّجني شعبي لأنني أوفرهم حِكْمَةً ».

فأجابه الرجل قائلًا: «والله لو كنت أوفر حكمة مما أنت الآن لما اخترت أن تكون ملكًا ».

فسقط الملك حينئذ على الأرض وبكى بُكاء مرّا. أما الرجل العاري فكان ينظر إليه بشفقة وحنان آسفًا على جهله وغروره. ثم تناول تاج الملك المتدحرج على الأرض ووضعه بلطف على رأسه المنحني، وعاد فدخل في المرآة كما خرج وهو ينظر إلى الملك برقّة وحسرة .

أما الملك فنهض بغتة إلى المرآة، وتأمّلها جيدا فلم ير هنالك أحدًا إلّاه وتاجه على رأسه .

الحرب والأمم الصغيرة

كان في أحد المُروج (195) نَعْجَة وحَمَل (196) يرعيان وكان فوقهما في الجو نسر يحوم ناظرًا إلى الحمل بعين جائعة يبغي افتراسه. وبينما هو يهمّ بالهبوط لاقتناص فريسته، جاء نسر آخر وبدأ يرفرف فوق النعجة وصغيرها وفي أعماقه جشع زميله .

فتلاقيا وتقاتلا حتى ملأ صراخهما الوحشي أطراف الفضاء .

فرفعت النعجة نظرها إليهما منذهلة، والتفتت إلى حَمَلها وقالت له: «تأمّل يا ولدي ما أغربَ قِتال هذين الطائرين الكريمين! أوليس من العار عليهما أن يتقاتلا، وهذا الجو الواسع كاف لكليهما ليعيشا مُتسالمين؟ ولكن صَلِّ يا صغيري، صَلِّ في قلبك إلى الله، لكي يُرسل سلامًا إلى أخويك المجنّحين !».

فصلّى الحمل من أعماق قلبه !

النّاقدون

في عَشِيَّة أحدِ الأيام كان المسافر راكبًا حِصَانه وسائرًا إلى الساحل، فوصل في طريقه إلى فندق. فترجّل (197) وربط حصانه إلى شجرة أمام الباب، لأنه كان واثقًا بالليل وبالناس شأن أقرانه (198) المسافرين إلى السواحل، ثم دخل إلى الفندق مع الداخلين .

وعند انتصاف الليل كان جميع مَنْ في الفندق نيامًا، فجاء لص وسرق حصان المسافر فلم يدر به أحد .

وفي الصباح نهض المسافر من نومه، وجاء على الفور إلى حيث ربط الحصان فلم يجده. وبعد أن فتّش عنه جيدًا عرف أن لصًا سرقه في تلك الليلة، فتأثر كثيرًا على فَقْدِ حصانه، ولكنه حزن بالأكثر على أن بين الناس من يغريه الشرّ فيعمد الى السرقة .

وعندما عرف رفقاؤه المسافرون بما جرى له، تجمّعوا حواليه، وبدأوا يَنْحون عليه باللائمة مُعنفين إياه .

فقال الأول: «ما أحمقك أيها الرجل! لماذا ربطت حصانك خارج الاصطبل؟

ثم قال له الثاني: «إنني أستغرب أنك لم تحجل (تقيّد)الحصان عندما ربطته. فما أوفر جهلك؟ ».

فقال الثالث لرفيقيه: إن السفر إلى البحر على ظهور الخيل غباوة من أساسه ».

فقال الرابع: «أما أنا فأعتقد أنه لا يقتني الخيول إلا كل بَلِيد بطيء الخطى ».

فدهش المسافر لبلاغتهم وفصاحتهم في الوعظ والإرشاد بعد فوات الأوان. ثم قال لهم وهو يتميز غيظًا: «أيها الأصحاب، عندما سُرِق حصاني جاءتكم الفصاحة عفوًا، فأسرعتم الواحد تلو الآخر تعدّدون هفواتي وزلّاتي، ولكن يدهشني كيف أنكم، مع ما أوتيتم من قوة البيان، لم يَقُلْ أحدٌ مِنكم كلمة عمّن سرق الحصان !».

الشعراء

كان أربعة من الشعراء جالسين إلى خُوان (199) ، وكان على الخوان إناء من الخمر .

فقال الشاعر الأول: «يُخيَّل إليّ أني أرى عَبِير هذا الخمر مرفرفًا في الفضاء، كسحابة من الطيور في غَابٍ مَسْحُور ».

فرفع الشاعر الثاني رأسه وقال: «أما أنا فإني أسمع بأذني الباطنة هذه الطيور تُغرِّد، فتأخذ ألحانها بمجامع قلبي فتأسره كما تأسر الزنبقة النحلة بين وريقاتها ».

فأغمض الشاعر الثالث عينيه ورفع ذِراعه وقال: «أما أنا فإني أكاد ألامسها بيدي، أشعر بحفيف (200) أجنحتها يهبّ في وجهي كأنه لهاثُ جنيّة نائمة ».

فنهض الشاعر الرابع إذ ذاك ورفع الإناء بيديه وقال: «عفوكم أيها الإخوان! فإني ضَعِيفُ البصر، ثَقِيلُ السمع، كَلِيلُ اللمس، فليس في طاقتي أن أرى عبير هذه الخمرة، ولا أن أسمع غناءها، ولا أن أشعر برفرفة أجنحتها .

أوّاه! إنني لا أشعر بغير الخمرة ذاتها، ولذلك يجب أن أشربها لتوقظ حواسّي الخاملة وتُشْعِلَ روحي بنار بركتكم العلوية ووحيكم الطَّهور ».

ثم وضع إناء الخمر على شفتيه وأتى على آخر نقطة فيه .

أما الشعراء الثلاثة رفقاؤه، فكانوا ينظرون إليه بدهشة، فاتحين أشداقهم وفي عيونهم غُلّة (201) لا تروى لهبتها، وبُغْضَة لا تَخْمُد (202) حدّتها .

دَوَّارة الريح

قالت دوارة الريح للريح: «قبَّحك الله، ما أثقلك وما أملّك، أليس في وُسْعِكِ أن تَهُبّي في وجه غير وجهي؟ ألا تعلمين أنك بعملك هذا إنّما تعكرين صفو ثباتي الذي أعطانيه اللّه؟ ».

فلم تجب الريح بكلمة قط، ولكنها ضحكت في الفضاء .

مَلِك أردوسة

مَثُلَ شيوخ مدينة «أردوسة» مرّة في حضرة الملك، والتمسوا منه أمرًا يقضي بمنع المُسْكِرات في مدينتهم .

فلم يجب الملك سؤلهم، بل ولّاهم ظهره وتركهم ومضى، ضاحكًا منهم في سِرِّه .

فانصرف الشيوخ من حضرته قانطين .

ولما بلغوا باب القصر رأوا وزير الملك. وكان هذا الوزير داهية، فَلَحِظَ اضطرابهم وعرف قصّتهم .

فقال لهم: «أوّاه أيها الأصحاب! فإنّ الحظَّ لم يسعدكم، لأنكم لو أتيتم إلينا عندما يكون ملكنا سكران لكنتم حَصَلْتُم في الحال على ما طلبتم !».

طائر إيماني

من أعماق قلبي هبّ طائرٌ وصعد مُحلِّقًا في الفضاء، وكان كلما حَلَّق في الجوّ، أكثر فأكثر، يزداد كبرًا فكبرًا. فبدا أولًا كالخطاف، ثمّ صار كالقبّرة، فكالنسر، إلى أن أصبح كسحابة الربيع اتساعًا، فملأ السماوات المُرصَّعة بالنجوم .

من أعماق قلبي هَبّ طائر، وحلق في الفضاء، وكان يزداد حجمه كلما طار .

ومع ذلك فإنّه ظلّ ساكنًا في أعماق قلبي .

فيا إيماني، يا معرفتي الجامحة القديرة .

كيف أبلغ سموّك، فأرى وإيّاك ذات الإنسان الفضلى المرسومة على أديم السماء؟

كيف أحوّل هذا البحر الذي في أعماق نفسي، إلى ضباب كثيف، وأهيم (203) وإياك في فضاءِ اللانهاية؟

أوَ هل يستطيعُ السجين في ظُلمات الهيكل أن يرى قِبابَ الهيكل المذهّبة؟ أم هل للنواة أن تتمدّد فتغلف الثمر كما كان يغلفها من ذي قبل؟

أجل يا إيماني الحليم ! أجل، فإني مقيد بالسلاسل الحديدية في غابات هذا السجن المحدود، تفصلني عنك هذه الحواجز المصنوعة من اللحم والعظم، وليس لي أن أطير معك الآن إلى عالم اللاحدود .

بَيْدَ أنّك من قلبي تنبثق (204) محلِّقًا في الفضاء الواسع، وأنت لاتزال قاطنًا في أعماق قلبي الوَجِيع، وإني بذلك لراضٍ مستسلمٌ قَنُوع .

الخلافات

حَدَثَ عندما كانت ملكة «عيشانا» في فراش مخاضها (205) والملك وعيون بلاطه يترقّبون نَجَاتهَا من آلامها الشديدة، وهُم جَالِسُون على أحرّ من الجمر في قاعة الثيران المجنّحة، أن دخل عليهم فجأة رسولٌ مستعجل، وركعَ عند قدمي الملك وقال: «أيها الملك المعظّم، إنّني أحمل لكم بشائر الفرح، وللملكة، ولعبيد الملك أجمعين، وذلك أنّ محراب «الجائر» عدوّك اللدود، ملك «البترون» قد قَضَى نحبه (206).

فلمّا سمع الملك وكبار رجال دولته هذه البشرى نهضوا منتصبين على أقدامهم، وهلّلوا فَرِحين. لأنّه لو طال أجل محراب البحّار سنة واحدة، لَغَزا أرض «عيشانا» وقاد سكّانها عبيدًا إلى بلاده .

وفي تلك اللّحظة دخل طبيبُ البلاط إلى قاعة الثيران المجنّحة، ودخلت وراءه قابلة الملك. فانحنى الطبيب احتراما للملك وقال له: «ليعش سيدي الملك إلى الأبد، فها قَدْ رزقك الله طفلًا ذكرا، سَيخْلُفكَ على العرش، ويخلّد حكمك على شعوب «عيشانا» عديد السنين ».

فتهلّل الملك، وطارت روحه فَرحًا، لأنه في اللحظة الواحدة، هلك عدوّه، وتأصّلت الخلافة في نَسْلِه .

وكان في مدينة «عيشانا» في ذلك العهد نبيّ حقّ، ولكنه كان فتى جريئا باسل الروح فأمر الملك أن يُحْضَر النبي بين يديه في تلك الليلة، فأحضِر في الحال .

فقال له الملك: «تنبّأ أيها النبي، وقل لنا كيف سيكون مستقبل ابني الذي وُلِدَ الآن للمملكة ».

فأجابه النبي على الفور قائلا: «اصغ أيها الملك فأُنبِّئك الصّدق عن مستقبل ابنك الذي وُلد لَكَ اليوم: فإنّ روح عدوك - عدوك اللدود الملك محراب - الذي مات في مساء الأمس، لم تلبث على متن الأرياح سوى ليلة واحدة وقد هبطت إلى الأرض ثانية تطلب جسدًا تأوي إليه، فلم تر أفضل من جسد ابنك الذي وُلد لك اليوم فتقمّصته »(207).

فاستشاط الملك غيظًا، واستل سيفه (208) ، وقطع رأس النبي بيده والزّبد يخرج من فمه غضبًا .

وها قد مرّت الأيام، وتصرمت (209) حبال السنين على تلك الحادثة، وحكماء «عيشانا» يُسرّون واحدهم للآخر قائلين: «أما قيل لنا في القدم، وأثبتت الأيام ذلك القول، أن «عيشانا» يحكمها عدوّها؟ ».

المعرفة ونصف المعرفة

جلس أربع ضفادع على قَرْمَة (210) حطب عائمة على حافة نهر كبير. فجاءت مَوجةٌ هوجاء واختطفت القرمة إلى وسط النهر، فحملتها المياه وسارت بها ببطء مع مجرى النهر. فرقصت الضفادع فرحًا بهذه السباحة اللطيفة فوق المياه لأنه لم يسبق لهن أن أبحرن بعيدًا من ذي قبل .

وبعد هنيهة صرخت الضفدعة الأولى قائلة: «يا لها من قرمة عجيبة غريبة! تأمّلن أيتها الرفيقات كيف تسير مثل سائر الأحياء. والله إنني لم أسمعْ قَطُّ بمثلها ».

فأجابتها الضفدعة الثانية وقالت: «إن هذه القرمة لا تمشي ولا تتحرك أيتها الصديقة، وهي ليست عجيبة غريبة كما توهّمت، ولكن مياه النهر المنحدرة بطبيعتها إلى البحر تحملُ هذه القرمة معها وتحملنا نحن أيضا بانحدارها ».

فقالت الضفدعة الثالثة: «لا لعمري لقد أخطأتما أيتها الرفيقتان في خيالكما الغريب، فإن القرمة لا تتحرك، والنهر أيضا لا يتحرك، وإنما الحقيقة أن فكرنا هو المتحرك فينا، وهو الذي يقودنا إلى الاعتقاد بحركة الأجسام الجامدة ».

وتناظرت الضفادع الثلاث في ما هو متحرك بالحقيقة. وحمي وطيس الجدال وعلا الصراخ بينهن ولم يتفقن على رأي واحد .

ثم التفتن إلى الضفدعة الرابعة التي كانت إلى تلك الساعة هادئة صامتة تُصْغي إليهن بانتباه واستيعاب، وسألنها رأيها

في الموضوع .

فقالت لهن: «كُلكُنَّ محقات أيتها الرفيقات، ولا واحدة منكن على ضلال. فإن الحركة كائنة في القرمة وفي النهر وفي فكرنا في وقت واحد ».

فلم يرُقهنّ ذلك الكلام، لأنّ كل واحدة منهنّ كانت تعتقد أنها وحدها المصيبة وأن رفيقاتها لفي ضلال مبين .

وما أغرب ما حدث بعد ذلك! فإن الضفادع الثلاث تسالمن بعد العداء، وتجمّعن فرَمَيْنَ بالضفدعة الرابعة من على القرمة

إلى النهر .

الصحيفة البيضاء

قالت صحيفةُ ورقٍ بيضاء في نفسها: «قد بُرِئت نقية طاهرة وسأظل نقية إلى الأبد. وإنني لأوثر أن أُحْرَق. وأتحوّل إلى رماد أبيض، على أن آذن للظلمة فتدنو مني وللأقذار فتُلامسني ».

فسمعت قنينة الحبر قَولَها وضحكت في قلبها القاتم المظلم (211) ولكنها خافت ولم تَدْنُ منها .

وسمعتها الأقلام أيضا على اختلاف ألوانها ولم تقربها قط .

وهكذا ظلت صحيفة الورق البيضاء كالثلج نقية طاهرة ولكن... فارغة .

العالم والشاعر

قالت الحيّة للحَسُّون (212): «ما أجمل طيرانك أيها الحسون! ولكن حبذا لو أنك تستطيع أن تنسلّ (213) إلى ثقوب الأرض وأوكارها، حيث تختلج عُصَارة الحياة في هدوء وسكون !».

فأجابها الحسون وقال: «إي وربّي! إنك واسعة المعرفة بعيدتها، بل أنت أحكم المخلوقات، ولكن حبذا لو أنك تطيرين ».

فقالت الحية كأنها لم تسمع شيئًا: «مِسْكِينٌ أنت أيها الحسون! فإنك لا تستطيع أن تبصر أسرار العمق مثلي، ولا تقدر أن تتخطر في خزائن الممالك الخفية فترى أسرارها ومحتوياتها، أما أنا فلا أبعد بك، فقد كنت في الأمس متكئة في كهف من الياقوت الأحمر أشبه بقلب رمانة ناضجة، وأضأل الأشعة تحوّلها إلى وردة من نور. فمن أعطي سواي في هذا العالم أن يرى مثل هذه الغرائب؟ ».

فقال لها الحسون: «بالصواب قد حكمت أيتها الحكيمة، فلا أحد إلّاكِ يستطيع أن يفترش ما تبلور من تذكارات العصور، وآثار الدهور ولكن وا أسفاه، فإنك لا تغرّدين !».

فقالت الحية: «إنني أعرف نباتًا تمتدّ جذوره إلى أحشاء الأرض وكلّ من يأكل من تلك الجذور يصير أجمل من «عشتروت »»(214).

فأجابها الحسون قائلاً: «لا أحد، لا أحد إلّاك قد اهتدى إلى حسر القناع عن فكر الأرض السحري. ولكن وا أسفاه، فإنك

لا تطيرين !».

فقالت الحية: «وأعرف جدولًا أرجوانيًّا (215) يجري تحت جبل عظيم، وكلّ من يشرب من هذا الجدول يصير خالدًا خلود الآلهة. وليس بين الطيور أو الحيوان من اهتدى إلى ذلك الجدول سواي ».

فأجاب الحسون وقال: «بلى والله، فإن في منالك أن تكوني خالدة مثل الآلهة لو شئت. ولكن وا أسفاه، فإنك لا تغرّدين !».

فقالت الحية: «وأعرف هيكلا مطمورًا تحت تراب الأرض، لم يهتد إليه باحث أو منقّب بعد، أزوره مرّة في الشهر، وهو من بناء جبابرة الأزمنة الغابرة. وقد نُقشت على جدرانه أسرار جميع الأزمنة والأمكنة، وكل من يقرؤها ويفهمها يوازي الآلهة في العقل والمعرفة ».

فأجابها الحسون قائلا: «بلى أيتها الحكيمة العزيزة، فإنك لو شئت لاستطعت أن تكتنفي (216) بلين جسدك جميع معارف الأجيال، ولكنك وا أسفاه، لا تقدرين أن تطيري !».

فاشمأزت (217) الحية إذ ذاك من حديثه، وارتدّت عنه إلى وكرها، وهي تبرّر في ذاتها قائلة: «قبَّحَه الله من غريد فارغ الرأس». أما الحسون فطار وهو يغني بأعلى صوته قائلا: «وا أسفاه، إنك لا تغرّدين! وا أسفاه، يا حكيمتي، فإنك لا تطيرين !».

الأثمان

كان رجل يحفر في حقله، وفيما هو يحفر عثر على تمثال بديع من المرمر الجميل، فأخذه ومضى به إلى رجل كان شديد الولع بالآثار والعاديّات وعرضه عليه، فاشتراه منه بأبهظ الأثمان (218) ، ومضى كل منهما في سبيله .

وبينما كان البائع راجعًا إلى بيته أخذ يفكر في ذاته قائلًا: «ما أكثر ما في هذا المال من القوة والحياة! إنه بالحقيقة ليدهشني كيف أن رجلًا عاقلًا ينفق مالًا هذا مقداره لقاء صخر أصمّ فاقد الحركة، كان مدفونًا في الأرض منذ ألف سنة ولم يحلم به أحد ».

وفي الساعة عينها كان المشتري يتأمّل التمثال مفكِّرا وقائلًا في ذاته: «تبارك ما فيك من الجمال! تبارك مافيك من الحياة! حلم أية نفس علوية أنت؟ هذه بالحقيقة نضارةٌ أعطيتها من نوم ألف سنة في سكينة الأرض! إنّني والله لا أفهمُ كيف يمكن الإنسان أن يبيع مثل هذه الطرفة النادرة بمال جامد زائل » (219).

البحار الأخرى

قالت سمكة لأختها: «يوجد فوق بحرنا هذا بحرٌ آخر، وفيه مخلوقات متنوعة تعيش وتسبح هنالك كما نعيش نحن

ههنا ونسبح ».

فأجابتها أختها: «تلك أوهام! تلك أوهام! ألا تَعْلَمِينَ أيتها العزيزة أنّ كلّ مخلوق يترك بحرنا قيد قيراط واحد، ويبقى خارجًا عنه، يموت في الحال؟ إذن، فما هي حُجّتك على وجود أحياء أخرى في بحار أخرى؟ ».

التوبة

دخل رجلٌ في ليلة ظَلْماء إلى حديقة جَاره، فسرق أكبر بطيخة وصلت إليها يده وحَمَلَها وجاء بها إلى بيته .

وعندما كسرها وجد أنها عجراء (220) لم تبلغ بعد نموها، فتحرّك ضميره في داخله إذ ذاك، وأوسعه تأنيبًا، فندم على أنه سرق البطيخة ...

المحتضر والشوحة (*)

مهلًا ولا تلجّي (221) يا أختاه، مهلًا !

فعمّا قريب أترك لك هذه البقيّة التلفة،

فإنها تستفرغ صبرك بطول نزاعها .

إنني أضنّ بجوعك أن يترقّب تصرّم هذه الهنيهات، لأنّ هذه القيود وإن كانت من اللهاث، فإنّ كسرها لعسير. إنّ رغبتي في الموت، وهي أبعد رغائبي، مقيّدة بسلاسل رغبتي في الحياة، وهي أدنى رغائبي .

عفوك أيتها الرفيقة، فإنّني مُتماهِلٌ بطيء .

هي الذكرى تمسك بروحي فتعيد إليها تذكارات مضت فتريها مواكب الأيام الذاهبة .

ومرأى شباب غابر قضيته في حلم .

وتَشَخَّص أمامي وجهًا يأمر أجفاني بألّا تغمض .

وتعيد إلى مسمعي صوتًا لا يزال صَدَاهُ متردِّدا في أذني،

ويدًا تلامس يَدي ولا أراها .

عفوك أيتها الرفيقة، فقد طال انتظارك ...

ولكن ها قد دنت الساعة وكل شيء عابر زائل: الوجه والعينان واليدان، والضباب الذي جاء بها .

ها قد حُلَّت العقدة،

قد تقطّع الحبل .

وذلك الذي ليس بالطعام ولا بالشراب قد تنحّى (222) وراح .

تقدّمي يا رفيقتي الجائعة، تقدّمي فقد أُعِدّت المائدة والطعام حقيرٌ يسير ولكنّه يُقدّم بمحبّة .

هلمّي واغرزي منقارك في جنبي الأيسر .

وأخرجي من بين قضبان قفصه هذا الطائر الأصغر .

الذي لن يرفرف جناحاه فيما بعد .

بربّك خُذيه وحَلِّقي به في رحاب الفضاء .

هلُمّي، هلُمّي إليّ يا صديقتي،

فأنا مضيفك الليلة، وأنتِ ضيفي العزيز، فأهلًا ومرحبًا !

وراء وَحْدتي

إن وراءَ وحدتي وحدة أبعد وأقصى .

وما انفرادي للمعتزل فيها سوى ساحة تغص (223) بالمزدحمين .

وما سكوني للساكنين فيها سوى جَلَبة وضَجِيج .

إنني حدَثٌ مضطرب هائم بعد، فكيف أبلغ تلك الوحدة القاصية؟

إنّ ألحانَ ذلك الوادي تتموّج في أذنيّ .

وظلاله السوداء تحجبُ الطريقَ عن عينيّ،

فكيف أسيرُ إلى تِلكَ الوحدة العُلوية؟

إنّ وراء هذه الأودية والتّلال غابة حب وافتتان،

وما سُكُوني لمن فيها سِوى عاصِفة هوجاء صمّاء،

وما افتتاني لعاشقيها سوى انخداع وغرور .

إنني حدثٌ مضطرب هائم بعد، فكيف أبلغ تلك الغابة القدسيّة؟

فإنّ طعم الدماء لا يزال في فمي،

وقوس أبي ونشابه ما برحا في يدي،

فكيف أسير إلى تلك الوحدة العلوية؟

إنّ لي وراء هذه الذات السجينة ذاتًا حُرَّة طليقة،

وما أحلامي في عقيدتها سوى حَرب في ظَلام،

وما رغائبي تجاه رغائبها سوى قرقعة (224) عظام .

إنني حدَثٌ مهانٌ ذليل بعد،

فكيف أكوِّن ذاتي الحرة الطليقة؟

أجل، كيف أكوّن ذاتي الحرة الطليقة

قبل أن أثأر لنفسي فأذبح جميع ذواتي المستعبَدة،

أو قبل أن يصير جميع الناس أحرارًا طُلَقاء؟

إذ كيف تطير أوراقي مترنّمة (225) فوق الريح

قبل أن تذوي (226) جذوري في ظلام الأرض؟

بل كيف يحلّق نسر روحي طائرًا أمام وجه الشمس

قبل أن تترك فراخي عشّها الذي بنيته لها بِعَرق وجهي؟

اليقظة الأخيرة

في غلس (227) الليل العميق، وقد هبّ النسيم معطَّرا بأنفاس الفجر الأولى، نهض «السابق» - وهو صدى الصوت الذي لم تسمع به أذنٌ بعد - فترك مقصورته وصعد إلى سطح بيته. وبعد أن وقف هنالك طويلا ينظر إلى المدينة الهَاجِعَة (228) في سكينة الليل، رفع رأسه، وكأنما قد تجمع حواليه أرواح أولئك النائمين المستيقظة، وفتح فاه وخاطبهم قائلًا :

«يا إخوتي وجيراني، ويا أيها المارّون ببابي في كل يوم، إنني أودّ أن أناجيكم في نومكم، وفي وادي أحلامكم، أود أن أمشي مطلقًا عاريًا، فإنّ ساعات يقظتكم أشدّ غفلة من نومكم، وآذانكم المثقلة بالضجيج كليلة (229) صماء .

«لقد أحببتكم كثيرًا وفوق الكثير ».

«قد أحببت الواحد منكم كما لو كان كلكم » ،

«وأحببتكم جميعًا كما لو كنتم واحدًا ».

«في ربيع قلبي كنت أترنّم في جنانكم » ،

«وفي صَيْفِ قلبي كنت أحرس بيادركم »(230).

«أجل، قد أحببتكم جميعكم، جبّاركم وصعلوككم، أبرصكم وصحيحكم، وأحببت من يتلمس منكم سبيله في الظلام، كمن يرقص أيامه على الجبال والآكام ».

«أحببتكَ أيها القوي، مع أن آثار حوافرك الحديدية لا تزال ظاهرة في لَحْمِي ».

«وأحببتك أيها الضعيف على رغم أنك جفّفت إيماني، وعطّلت عليّ صبري ».

«أحببتك أيها الغني، في حين أن عسلك كان علقما في فمي ».

«وأحببتك أيها الفقيرُ مع أنك عرفت عوزي (231) وفراغ ذات يدي ».

«أحببتك أيها الشاعر المقلّد، الذي يستعير قيثارة جاره ليضرب عليها بأصابعه العمياء، أحببتك كرمًا ولطفًا. وأحببتك أيها العالم الدّائب عمره في جميع الأكفان الرثّة من حقل الخزّاف الممقوت ».

«أحببتك أيها الكاهن الجالس في سكوت أمسه متسائلًا عن مصير غده ».

«وأحببتك أيها العابد الذي يتخذ له من أشباح رغائبه آلهة يعبدها ».

«أحببتك أيتها المرأة المتعطّشة وكأسها مملوءة أبدا، لأنني عرفت سِرَّك ».

«وأحببتك أيتها المرأة الساهرة لياليها، مشفقًا عليك ».

«وأحببتك أيها الثرثار قائلًا في نفسي: «حبّذا لو أسمع نطقًا يعبر عمّا في صمته ».

«أحببتك أيها القاضي والناقد، ولكنكما عندما رأيتُماني مَصْلُوبا قلتما :

«ما ألطف نزف دمائه من عروقه، وما أجمل الخطوط التي ترسمها في مسيلها على جلده الناصع !».

«أجل أحببتكم جميعكم، فتاكم وشيخكم ».

«وأحببت قصبتكم المرتجفة كسنديانتكم الجبارة الراسخة ».

«ولكن وا أسفاه فإنّ قلبي الطافح بحبّكم قد حوّل قلوبكم عني ».

«لأن في وسعكم أن ترتشفوا خمرة المحبة من القدح الصغير ولكنكم لا تَقْوون على شُرْبها من النهر الفَيَّاض ».

«إنكم تستطيعون أن تسمعوا صوت المحبة عندما تهمس

في آذانكم ».

ولكنكم تصمّون آذانكم عندما تَصِيح المحبة مهلّلة بأعلى صوتها ».

وعندما رأيتم أنني قد أحببتكم جميعكم بالسوية، تهكّمتم قائلين : «ما أسهل انقياد قلبه، وما أبعد الفطنة عن مسالكه ! إنّ محبّته هذه محبّة مُتسوِّل جائع، قد تعوّد التقاط الفتات، ولو كان جالسًا إلى موائد الملوك، بل هي محبة ضعيف حقير، لأن القوي لا يحب إلاّ الأقوياء ».

«وعندما رأيتم أنني أحببتكم حبّا مُفْرِطا قلتم: «إن محبته هذه محبة أعمى لا يُميّز بين جمال الواحد وبشاعة الآخر، بل هي محبة عديم الذوق، الذي يشرب الخلّ كأنه يشرب الخمر. بل إنما هي محبة فضوليّ مُدَّع، إذ أيُّ غريب يستطيع أن يحبّنا كأبينا وأمّنا وأختنا وأخينا؟ ».

«وهذه أقوالكم وغيرها كثير، لأنّكم طالما أشرتم إليّ بأصابعكم في شوارع المدينة وساحاتها وقلتم بعضكم لبعض ساخرين :

«بربّكم انظروا الصّغير الكبير، الذي لا يَعْبأ (232) بالفصول والسنين، فهو عند الظهيرة يلاعب أولادَنا، وعند المساء يجالس شيوخَنا، مدّعيا الحكمةَ والفهمَ ».

«أما أنا فقد كنت أقول في قلبي: « لا بأس في ذلك، فإني سأحبهم أكثر فأكثر، ولكني سوف أسدل على محبتي ستارًا من البغض، وأستر عطفي بشديد كُرهِي . وسأتبرقع ببرقع من حديد، ولا أسعى وراءهم إلا مسلحًا مدرعًا ».

«وبعد ذلك ألقيت يدًا ثقيلة على رضوضكم (233) وجراحكم، وكما تعصف العاصفة في الليل رعدتُ في آذانكم ».

«ومن على السطوح قد أذعتكم للملإ فرّيسيين مُرائين خدّاعين، وفقاقيع أرض كاذبة فارغة ».

«قد لعنت قاصري النظر فيكم كما تُلْعَن الخفافيش العمياء ».

«وشبّهت الملتصقين بالأرضِ والأدنياء منكم بالمناجذ العادمة النفوس ».

«أما الفصحاء والبلغاء بينكم فدعوتهم متشعبي الألسنة، ودعوت الصامت الساكن فيكم متحجر القلب والشفتين، وقلت في البسيط الساذج: «إنّ الأموات لا يملّون الموت ».

«قد حكمتُ على السّاعين وراء المعرفة البشرية منكم ومن أبنائكم كمجدّفين على الروح القدس »(234).

«وحكمت أيضا على المأخوذين والمجذوبين بحبّ الأرواح وما وراء الطبيعة كمصطادي أشباح، يرمون شِباكَهُم في مياهٍ راكدة، ولا يصطادون سوى ظلالهم البَلِيدة ».

«كذا شهّرتكم بشفتي، ولكنَّ قلبي، والدماء تنزف منه، كان يدعوكم بأرقّ الأسماء وأحلاها ».

«أَجَلْ أيها الأصحابُ والجيرانُ، فإن المحبةَ قد خاطبتكم مسوقةً بسياطِ ذاتها ».

«والكبرياء قد رَقَصَتْ أمامكم متعفّرة بغبار خَيْبَتِها مذبوحة بآلامها ».

«وتَعَطُّشي لمحبتكم قد ثارَ ثائره على السطوح ».

«ولكن محبتي كانت تسألكم صفحًا وهي راكعة صامتة ».

«ولكن إليكم المعجزة يا قوم : «إنَّ تستّري قد فتحَ عُيونَكُم، وبُغْضِي قد أيقظَ قلوبكم ».

«والآن أنتم تحبّونني !».

«إنكم لاتحبّون سِوَى السيوف التي تَطْعَنُ قلوبَكُم والسهام التي تخرِق صُدُورَكم » ،

«لأنكم لاتَتعزّون إلّا بِجراحِكُم ولا تَشكُرون إلا بخمرِة دمائكم ».

«وكما يتجمّع الفراشُ حولَ اللهيبِ، ساعيًا وراء حتفه (235) ، تجتمعون أنتم كل يوم في حديقتي، وبوجوه مرتفعة، وعيونٍ شَاخِصة، تراقبونني وأنا أمزُّق نسيجَ أيامكم، فتتهَامَسُون فيما بينكم قائلين :

«إنه يُبصرُ بنور الله، ويتكلم كأنبياء المتقدمين فَيَحْسُر (236) القناع عن نفوسنا، ويحطّم أقفال قلوبنا، وكما يعرف النسر مسالك الثعالب يعرف هو أيضًا طرقنا ومسالكنا ».

«بلى، فإنني بالحقيقة أعرف طرقكم، ولكن كما يعرف النسر طُرُق فراخه. وإنّني، بمسرّة قلب، قد كشفت لكم سِرّي، ولكنّني لحاجة بي إلى قربكم، أتظاهر بالجفاء، وخوفًا منّي على دُنوّ قضاء محبّتكم أقوم على حراسة سُدود محبّتي ».

وبعد أن فرغ السابق من كلامه غطّى وجهَهُ بيديه وبكى بكاءً مُرًّا، لأنه أدركَ في قلبه أن المحبةَ المحتقرة في عُريها، لأعظم من المحبة التي تنشد الظفر في تستّرها وتنكرها، وخجل إذ ذاك من ذاته .

ثُم رفع رأسه بغتةً، وكأنّه أفاق من نوم عميق، وبسط ذراعيه وقال: «ها قد ولّى الليل، ونحن أولاد الليل يجب أن نموتَ عندما يأتي الفجر مُتوكئًا (237) على التّلال، وستُبعَث من رمادنا محبة أقوى من محبّتنا، وستضحك في نور الشمس، وستكون خالدة ».

(1)(*) ليس بخاف دلالة الرقم 7 في الأساطير القديمة: سبع سماوات، وسبع أراضين والأقزام السبعة، وخلق الدنيا... وسوى ذلك .

ركضت: جريتُ .

(2) سافر الوجه: مكشوف .

(3) انتصب: وقف مستقيمًا .

(4) غيَابة السجن: قعره .

(5) الأقران: جمع قِرْن، وهو النظير في الشجاعة .

(6) ارتعشت شفتاي: تحركت .

(7) الجبلة: الفطرة التي خلق عليها .

وهذه الحكاية ترمز إلى المجنون ونبي الله موسى «كليم الله » ؛ حين وقف بالواد المقدس، وطلب رؤية الله، فأنبأه ربه: لن تراني، وأمره بأن ينظر إلى الجبل، فخرّ موسى صعقا .

(8) يغشى: يغطي .

(9) توارى: حُجب واختفى .

(10) يطْوِي: يضُم .

(11) انحدر: انحطَّ من عُلُوٍّ إلى سُفْلٍ .

(12) يدرأ: يدفع .

(13) التطفّل: التدخل في الأمور دون دعوة من أحد .

(14) الأشباح: جمع شبَح وشَبْح وهو ما بدا لك شخصه من الناس وغيرهم غير جَليّ من بُعْد .

(15) المتْن: الظَّهْر .

(16) منخريك: أي أنفك .

(17) أضِن: أبخل .

(18) المناقب: جمع منقبة، وهي أفعال خارقة بعيدة عن المألوف .

(19) تقطنه: تسكنه .

(20) يا صاحِ: يا صاحبي على الترخيم .

(21) يتفق هذا، وما يُلح عليه جبران من أقوال مثل قوله : «أنت أعمى، وأنا أصم وأبكم؛ إذنْ ضع يدك بيدي، فيدرك أحدنا الآخر ».

(22) اللَّعِين: الفزّاعة التي تنصب في المزرعة تخويفًا للطيور والحيوانات الأخرى .

(23) يسبر غورها: يعرف أسرارها، ويفك طلاسمها .

(24) تنقَّصني: ذَكَرَ نقائصي أو عيوبي .

(25) الممقوت: المبغوض المكروه .

(26) الحيزبون: العجوز من النساء .

(27) الرثة: القديمة البالية .

(28) الطليقة: الحُرة .

(29) حنونتي: التي أشعر نحوها بالحنين .

(30) قُنَّة: قُنّة كل شيء أعلاه .

(31) دائبين: مستمرين .

(32) قصعة: إناء للطعام .

(33) الخنَّاس: الشيطان، وسمِّي بذلك لأنه يخنِس إذا سمع ذكر الله ؛ أي يتأخر وينقبض .

(34) مقتنياتنا: ما نملك، وكل ممتلكاتهم - كما تشير الحكاية - القصعة الخزفية .

(35) اكتئاب: الكآبة سوء الحال والانكسار من الحزن .

(36) نقتني: نملك .

(37) يتميز: يتقطَّع .

(38) البتة: مصدر مؤكِّد، ولا يستعمل إلا بالألف واللام، ويقال لكل أمر لا رجعة فيه .

(39) تبًّا لك: ألزمك الله خسرانًا وهلاكًا .

(40) الخامل: الساقط الذي لا نباهة له .

(41) دنا: اقترب .

(42) لم يعبؤوا: لم يهتموا .

(43) بادن: مكتظ مليء .

(44) أمائر: علامات وسمات .

(45) تضرعكم: دعاؤكم .

(46) السَّنانير: القطط .

(47) أرتقه: من رتق الثوب والنعل إذا حاكه أي خيّطه .

(48) الهيكل: الهيكل في الكتاب المقدس بناء مخصص للعبادة .

(49) أترنّم: أُغَنِّي .

(50) أوّاه: كلمة تفيد التوجع والحزن .

(51) الهوجاء: المتسرعة أو البلهاء .

(52) هائمة على وجهي: تحوم كأنها لا تدري أين تتوجه .

(53) ناشدة: طالبة .

(54) الدنيئة: التي لا خير فيها .

(55) أَنْقَم: أكره أشد الكراهية .

(56) أُفٍ: كلمة تدل على التضجر .

(57) دائبة: مستمرة .

(58) لم يحرن جوابًا: أي لم تعد لأي ذات منهن القدرة على حوار الذات السابعة، أو حتى مجادلتها .

(59) جَنَّ الليل: دخل بظلامه .

(60) شاخصة: تنظر دون أن تَطْرِف .

(61) نقرة العين: فتحتها .

(62) دَهاك: أصابك .

(63) اغتنمت: انتهزتُ .

(64) عدوت: أسرعتُ .

(65) الإسكاف: مخيط الأحذية ومصلحها .

(66) مأواه: جحره أو بيته الذي يقطن فيه .

(67) تفرس: نظر بإمعان وتفحُّص .

(68)(*) تشير الحكاية إلى أن الواقع المزيف غير الصحيح قد يطغى على الحقيقة، فقد اضطر الملك ووزيره إلى الشرب من البئر، حتى يتم قبولهما مرة أخرى من سكان المدينة (السواد الأعظم من الناس).

النائية: البعيدة .

(69) خلسة: غفلة، لم يشعر بها أحد، أو فجأة .

(70) يتسارّون: يقولون كلامهم سرًّا .

(71) نأبى: نأنف ونكره .

(72) ثابا: عادا .

(73)(*) الحكاية إشارة رمزية إلى مظهر من مظاهر تزييف الواقع، فصاحب الحانة وزوجه في غاية السعادة؛ للمال الذي أنفقه الثلاثة نتيجة موت إنسان ما، وهما يطمحان في انتشال ابنهما الوحيد من قذارة الحانة، كي يصبح رجل دين «قسيس »!!

نَستحل: نُحَلِّي، نشرب عسلًا .

(74) يضجون: يصيحون .

(75) مميتة: أي كبيرة جدًّا .

(76) هكذا في الأصل، وصوابها ثلاث مرات .

(77) ثار ثائر غضبي: أي اشتد غضبي .

(78) تفقه: تفهم .

(79) تعمُّدت: غُسِلْتُ بماء المعمودية. والمعمودية المسيحية فريضة وضعها المسيح للكنيسة .

(80) أحرى: أجدر وأولى .

(81) تفرس: نظر متفحصًا .

(82) مليا: طويلا .

(83) بلبلتها: تداخلها برطانة غير مفهومة .

(84) السفرجل شجر مثمر من الفصيلة الوردية، ثمره غني بالفيتامين، رائحته طيبة، وطعمه لذيذ، يؤكل نيئًا، وتصنع منه المربات، وبذوره طيبة. ويسمى القصاص في بعض بلاد المغرب. الواحدة سفرجلة .

(85) نينَوى، بكسر أوله: محافظة في شمال العراق، ومركزها الموصل .

(86) الزرزور: من الطيور الصغيرة - كالعصافير - أو المتوسطة الحجم. وهي اجتماعية جدًّا، ولذا تفضل أن تعيش في المناطق المأهولة .

(87) القَفْر من الأماكن: الجدب الذي تصعب فيه الحياة .

(88) وطئتها: مررت عليها بقدميّ أي مشيت فيها ومررت بها .

(89) أفتش: أبحث .

(90) يلوح لي: يظهر لي .

(91) جُلت: طُفْتُ .

(92) منعرجاتها: مكان تعرُّجِها أو انحنائها .

(93) في الأصل عطفاتها. والمنعطف: المنحنى .

(94) خَبَرْتُ: عرفتُ وعلمتُ .

(95) قَصرت: عَجزت .

(96) انسحقت: اندهست وفنيت .

(97) من معاني الذات: الماهية والنفس .

(98) الهيكل: الهيكل في الكتاب المقدس بناء مخصص للعبادة .

(99) الكتاب: الكتاب المقدس .

(100) أحظى: أظفر وأنال .

(101) أشرفت عليها: رأيتها .

(102) الصدر: أي بداية الهيكل .

(103) الدهش آخذ مني كل مأخذ: أي مسيطر عليَّ .

(104) حَالًّا بنا: مسيطرًا علينا، متلبسًا بنفوسنا وسلوكنا .

(105) المذبح: في بعض معانيه مرادف الهيكل. والمذبح شبه طاولة أو أي بنية صغيرة تقدم عليها القرابين والهبات لغايات دينية. أو مكان مقدس تقام فيه الطقوس الدينية. ويوجد في أماكن العبادة المسيحية .

(106) قنة الجبل: أعلاه .

(107) لم ينبس ببنت شفة: أي لم ينطق بكلمة واحدة .

(108) يحرق الأُرَّم: يحك أضراسه بعضها ببعض من الغيظ .

(109) حظيتُ: فُزْتُ ونلت ما أرغب فيه .

(110) التُّرس: ما يتوقى به في الحرب .

(111) أوج كماله: قمة كماله .

(112) نحبه: أجله المُقدر له .

(113) دوامس الليالي: ظلماتها .

(114) الجَلَد: الصبر .

(115) انبثقتْ: نبتت وشقت الأرض .

(116) السنديان: شجر كثير في بلاد الشام، واحدته: سنديانة .

(117) يهولك: يفزعك ويخيفك .

(118) آبد: متوحِّش .

(119) نحيب: بكاء وعويل .

(120) ساحات الوغى: ميادين القتال .

(121) جذل وطروب: فرح مسرور .

(122) كئيب: أي مكتئب حزين .

(123) تمتشق البرق حسامًا: من قولهم امتشق السيف أي استله لمبارزة خصمه، وهي هنا بمعنى جعل البرق أو أخذه وسيلة للمبارزة .

(124) آكام: مفردها أكمة، والأكمة: التل. يقال في الأمثال : «وراء الأكمة ما وراءها » وهو مثل يضرب للتعبير عن أمر مُريب، أو مكيدة وراء شيء ما، والمقصود عروش الآلهة .

(125) سُبك: صُبَّ .

(126) قدرتُ: تمكنتُ .

(127) طلاوته: بتثليث أوّله: حسنه وجماله .

(128) الباصرة: قوة الإبصار. والصواب «بصيرتي » وهي قوة الإدراك والعلم والخبرة والمهارة .

(129) طفنا: أخذنا .

(130) الجون كما ورد في اللسان: الأسود المُشْرب حُمرة، وقيل هو النبات الذي يضرب إلى السواد من شدة خضرته، والمقصود به مكان في الشاطئ به خضرة .

(131) خلّفناه: تركناه وتجاوزناه .

(132) بغتة: أي فجأة .

(133) طائل: فائدة .

(134) أمارات: علامات .

(135) ناشدين: طالبين ومتوجهين .

(136) حدقوا: نظروا إلي باهتمام وشدة نظر .

(137) البخْس: الناقص عن القيمة .

(138) نعبأ: نهتم، أو نقيمُ وزنًا لصلبكم .

(139) هنيهة: قليل من الزمان .

(140) الحكمة هنا: العلم والتفقه .

(141) دياجير: جمع ديجور، وتجمع على دياجر كذلك وهي هنا بمعنى الليل الكثير الظلام، وأصل الديجور التراب الأغبر الضارب إلى السواد .

(142) بَيْد أننا: غير أننا .

(143) أحداث تواقون: صغار السن مشتاقون .

(144) لا تنفد: لا تنتهي .

(145) سكينة الليل: هدوؤه .

(146) جلبة: ضوضاء .

(147) أي التي لا حسب لها ولا لسان .

(148) الغبراء: الأرض .

(149) الضجيج: الصياح .

(150) البتة: مطلقًا .

(151) يمقت: يكره .

(152) طفقا: أخذا وبدأا .

(153) الجدل: اللدد في الخصومة، والمقصود سعي كل واحد منهما إلى الانتصار على خصمه .

(154) حمي وطيس الجدال: اشتد وبلغ أوجه، وصار عنيفًا صاخبًا .

(155) نمت: من الفعل نما أي زادت .

(156) يرنون: يتطلعون .

(157) المنقبة: الفعل الكريم والمغفرة .

(158) فيض: كثير .

(159) امتقع: تغيَّر من حزن أو مرض .

(160) السَّديم هنا: الضباب الرقيق .

(161) أتخطَّر: أسير في نشاط .

(162) الأغرار: يقال رجل أغر: أي شريف، وفلان غُرة قومه: سيدهم، وغُرةكل شيء أوله وأكرمه .

(163) رجء ليس في العربية وإنما فيها رجًا مفرد أرجاء .

(164) اللحد: القبر .

(165) نُفْلح: تُشَق للزراعة .

(166) هائمة: متحيرة .

(167) برزنا: خرجنا .

(168) الكفاف: قدر الحاجة .

(169) البادن: السمين .

(170) أمعن النظر: أطال النظر .

(171) الرثة: البالية القديمة .

(172) مثلوا بين يديه: وقفوا .

(173) الأريحي: الواسع الخلق المنبسط إلى المعروف .

(174) الفياض: كثير العطاء .

(175) يفيض: يسيل بكثرة .

(176) كَبَح جِماحه: منعه من الاندفاع .

(177) شمم: أَنَفَة وعزة نفس .

(178) القفار: الأرض لا شيء فيها .

(179) القاطن: المقيم في المكان .

(180) شاقني: أجهدني .

(181) حدا بك: دفع بك .

(182) المناجذ: من آكلات الحشرات، تتغذى بالديدان، ويرقات الحشرات، وتمارس معظم صيدها في جحورها التي تعدّ أفخاخا تسقط فيها فرائسها .

(183)(*) عواقبه - أي الظلم - سيئة .

جورجيوس: هو الشهيد جورجيوس .

(184) حيزبون: عجوز .

(185) المواء: صوت الهر .

(186) يلوح: يبدو أو يظهر لي .

(187) بتأنٍ: أي بتمهل وهدوء .

(188) ماهية الشيء: حقيقته وجوهره .

(189) أعياه: أجهده .

(190) جثا على ركبتيه: جلس عليهما .

(191) انتصب: قام .

(192) رَدَحًا: فترة زمنية طويلة .

(193) الكفاف: ما يسد الحاجة .

(194)(*) الذات العظمى: تشير إلى الذات الحقيقية العارية التي في داخل كل واحد فينا .

صدر المقصورة: مقدمتها أو مطلعها .

(195) المروج: المراعي .

(196) الحَمَل: الخروف الصغير .

(197) ترجَّل: سار على رجليه .

(198) أقرانه: أصحابه .

(199) الخوان: ما يوضع عليه الطعام ليؤكل، فإذا وضع عليه الطعام فهو مائدة .

(200) حفيف: حركة الأجنحة وما تحدثه من أثر .

(201) غُلّة: عطش شديد .

(202) تخمد: تطفأ .

(203) أهيم: أخرج لا أدري أين أتوجه .

(204) تنبثق: تندفع .

(205) المخاض: ألم الولادة وهو الطَّلْق .

(206) قضى نحبه: انتهى أجله (مات).

(207) تقمص شخصية غيره: قلّده وحاكاه في سلوكه وهيئته .

(208) استل سيفه: نزعه من غمده .

(209) تصرمت: قضت، وأنهت .

(210) قَرمة: حزمة صغيرة .

(211) القاتم المظلم: الشديد الظلمة .

(212) الحَسُّون: طائر حسن الصوت، جميل المنظر، ذو ألوان زاهية .

(213) تَتَسَلّ: تنطلق في استخفاء .

(214) عشتروت: ربة الحب، وهي إلاهة بابل وآشور والفينيقيين، وهي الإلهة إينانة عند السومريين، وأسترتي عند اليونانيين .

(215) الأُرْجُوان: صِبْغ أحمر. ويقال: أحمر أرجواني، أي قانٍ .

(216) تكتنفي: تُحيطي .

(217) اشمأزَّت: انقبضت ونَفَرت واقشعرَّت .

(218) أبهظ الأثمان: أغلاها وأعلاها ثمنًا .

(219) نضارة: هنا بمعنى نعمة .

(220) عجراء: غير ناضجة .

(221)(*) حفرة كما في قاموس أعلام الكتاب المقدس من العهدين القديم والجديد، وأصلها اسم عبري معناه: منخفض، وهو رجل من نسل يهوذا .

لج في الأمر: تمادى فيه .

(222) تنحَّى: زال .

(223) تغُصّ: تمتلئ .

(224) القرقعة، والطقطقة، والفرقعة من أمراض العضلات والعظام والمفاصل .

(225) الترنم: تطريب الصوت وتحسينه، ومنها ترنمت أجراس الكنائس .

(226) تذوي: تذبل وتتلاشى .

(227) غلس: ظلام .

(228) الهاجعة: النائمة .

(229) الكليل: الضعيف، أي منهكة ضعيفة .

(230) بيادركم: أي أرضكم، مفردها بيدر .

(231) عوزي: فقري وحاجتي .

(232) لا يعبأ: لا يهتم .

(233) رضوضكم: المراد هنا أوجاعكم .

(234) الروح القُدُس في المسيحية هو من أقانيم الله الواحد، مع أقنوم الله الآب، وأقنوم الله الابن، وهذه العقيدة هي عقيدة التثليث .

(235) حتفة: هلاكه .

(236) يَحْسُر: يكشف .

(237) متوكئا: معتمدا عليها .